يا قمر

بقلم الاستاذ عبد الرحمن صدقي

من ذا يطيق السرى والليل معتكر ... ومن يحنُّ له لولاك يا قمرُ
جهامة الليل لما ارتدتْ ساحته ... عكستها متعةً يحلو بها السهر
ولم نكن لنرى من فرط حلكته ... مقدار حلكة ما لا يبصر البصر
حتى ليسأل ساري الليل صاحبه ... هل ادلهمَّ الدجى أم قد عشى النظر
فشعّ نورك إيضاحاً لظلمته ... وبات يعرف كنه الظلمة البشر
فاعجبْ لنورك تبدي الليلَ آيتُه ... وآية النور أن يعفى الدجى العكر
واعجب لقرصك يقفو كلَّ مدَّلج ... وإن تعارضت الوجهات والوطر
فاءٍ - وكل نفيس القدر منغربٌ ... كما نأت في قرار العيلم الدرر
تضيء كالدرة الغراءِ ملتمعاً ... وغيهب الليل كالامواج منهمر
سهران تمشي الهوينا مطرقاً أبداً ... مشى الحكيم قد استغرقه الفكر
تجلو المشاهد في القمراء شاحبة ... كأن عالمها الاشباح والصور
ياليت ان حياتي كلها سمر ... في ليلة وسميري انت يا قمر

البلاغة في اللغة العربية

من محاضرة القاها الاستاذ علي عبد الرازق

من النتائج اللازمة لادراك الجمال في الكلام والتأثر به أن تنصرف العقول الى معرفة أسرار ذلك الجمال والبحث عن حقيقته وعن درجاته وعن كل ما يتصل بهذا الجمال

وإذا اتجهت العقول الى هذه المباحث نشأت علوم البلاغة . فان علوم البلاغة ليست إلا هذه المباحث وما ينحو نحوها

إذن فمباحث البلاغة كما ترون قديمة وليس من البعيد أن تكون نشأتها فطرية في الناس كما كان إدراك البلاغة نفسها فطرياً في الناس منذ كان الانسان حيواناً ناطقاً

على أنها اذا لم تبلغ في القدم هذا المبلغ فمما لا شك فيه عندنا أن أقدم عصور الفلسفة اليونانية قد وجه أذهان الفلاسفة الى البحث في معنى البلاغة ووجوهها وأسرارها ضرورة ما كان لفنون الخطابة والجدل والكتابة والشعر أيام إذ من شأن كبير

ومما لا شك فيه عندنا أن ارسطاطاليس قد بحث في البلاغة ايضاً والف فيها كتاباً

وههنا ملاحظة نرجو ألا يغضب منها سادتنا الفلاسفة والمنطقيون . فلقد يذهب بنا الظن والله أعلم الى أن علم المنطق الذي ينسب الى أرسطاطاليس . قد كان بحثاً في فنون البلاغة وعلماً من علوم البيان أكثر مما كان علماً من علوم الفلسفة وبحثاً من مباحثها . كان باباً من أبواب الأدب يدور حول صنعة القول وما يتصل بأغراض البلغاء من التأثير في العقول بضروب البيان وافحام الخصوم بوسائل الجدل ، أكثر مما يدور حول صنعة العقل ونظام التفكير الانساني

ربما تجدون هذه الحقيقة غريبة عليكم ، ولكن قد يساعدكم على ادراكها أن تلاحظوا العوامل التي أحاطت بنشأة المنطق والتاريخ الذي وجد فيه

ليس من غرضنا أن نقيم لكم البرهان على ذلك ولا يتسع له وقتنا ، ولكن الذي يشق عليكم من هذا الرأي سيبدو لكم هيناً سائغاً اذا أنتم نظرتم في جملة أبواب المنطق ، فستجدون عندئذ أن شطراً كبيراً من تلك الأبواب ليس الا بحثاً في مسائل تتعلق بالالفاظ والمعاني والعلاقة بينهما ، وشطراً آخر ليس الا بحثاً في أساليب التحديد للاشياء وتعريفها وكيفية تأليف الحدود والتعاريف ، وشطراً آخر ليس الا بحثاً في وسائل الاقناع والتأثير من البرهان والخطابة والشعر

والجدل والسفسطة وما يتصل بذلك من كيفية تأليف الحجج وتنظيمها ، ولم يبق بعد ذلك إلا ما يذكر استطرادا وليس من جوهر المنطق فى شىء

وانه لمن غريب ما يلاحظ أن العرب قد سموا ذلك العلم بعلم المنطق ، كأنهم أدركوا أن علاقته بالكلام أقوى من علاقته بغيره . ومن الغريب ايضاً أن العرب قدسموا بعلم الكلام تلك المباحث التى أنتجها المنطق وأنتج بها نوعا جديدا من الادب واسلوبا طريفا فى البيان ومنهجا محبوبا من مناهج الجدل والاقناع خصوصا فى الدين ، كأنهم مع ما تخلل تلك المباحث من دين أو فلسفة لم يلاحظوا فيها غير أنها فن من فنون البلاغة والأدب

نعم قد جهل اليونان أنفسهم والعرب والاوربيون ما فى المنطق من أدب وفن ، فخرجوا به الى حدود الفلسفة الجافة العميقة . وذلك كما جهل العرب أنفسهم فيما بعد ما فى علم الكلام من ادب وفن فخرجوا به الى حدود الفلسفة الجافة العميقة . وبذلك أصبح المنطق أسلوبا ركيكا معقداً وعلما لاخير فيه للفكر ولا للسان ، كما أصبح علم الكلام عندنا خليطا من السخف الفكرى والغثاثة اللفظية

وكذلك العلوم اذا تأملتم تجدونها « تشقى كما تشقى العباد وتسعد »

مباحث البلاغة كما ترون قديمة لا يمكن الاهتداء إلى اول تاريخها . فكل من يدرك ان فى الكلام جمالا يندفع من نفسه الى التماس معنى ذلك الجمال وسره والى البحث فى وجوه ما يزين الكلام وما يشينه

تلك هى المباحث التى يدور حولها علماء البلاغة فى كل امة ، وتلك هى المباحث التى يدور حولها بحث الفلاسفة اليونانيين ، ويدور حولها العرب منذ عصورهم الاولى ، وتلك هى مباحث البلاغة التى حيرت العقل البشرى منذ القدم والتى تواردت على حلها انظار العلماء والأدباء والفلاسفة من أهل الشرق والغرب قديما وحديثا . فياليت شعرى هل لقيت تلك المباحث من يجىء لها بحل ومن يصل فيها الى قول فصل ، ام لا يزال العقل البشرى حيث كان من الحيرة بها والشك فى أمرها ؟

ذلك ماتريد ان نتحدث اليكم عنه قليلا فى بقية هذه المحاضرة

هل يمكن تحديد البلاغة ؟

قد يكون الشىء واضحا غاية الوضوح ومدركا تمام الادراك ، ومع ذلك لا يسهل الوصول الى تحديد حقيقته ومعناه . مثال ذلك الضوء والكهرباء ، فالضوء جلى مبصر لكل ذى عينين ، والكهرباء محسوسة يستخدمها الناس فى كثير من مرافق الحياة . ومع ذلك لايزال العلماء فى حيرة من حقيقة الضوء والكهرباء ! . وأيضا كلنا نعرف الوجود معرفة واضحة ، حتى قال بعض

العلماء ان ادراك الوجود بديهي ، ومع ذلك لا يستطيع العلماء بسهولة ان يحددوا حقيقة الوجود ومعناه . وكذلك الجمال كلنا ندركه ونتأثر به ونتحدث عنه . فاما حقيقة الجمال وحدوده فمطلب لا يزال عزيزا . ذلك هو شأن البلاغة يدركها الناس بالفطرة كما قلنا ويتأثرون بها ويتحدثون عنها ، فاما اذا ما ارادوا ان يعرفوا حقيقتها ويرسموا حدودها ويتبينوا اسرارها فهم يحاولون من ذلك امرا عسيرا ويطلبون غرضا بعيدا ويدخلون فى مجال مشتبه الاعلام مظلم الجوانب . ذلك بان الناس فى مباحث البلاغة لا يجدون مقياسا ثابتا يحتكمون اليه ولا اساسا واضحا يبتون عليه ولا مبدأ صريحا يصدرون عنه ولا غاية معينة يرجعون اليها . فليست مباحث البلاغة كمباحث علم النحو مثلا مدارها على ماينطق به العرب ، ولا كعلم الطب مرجعه الى ماتقضى به التجارب ، ولا كعلم الحساب اساسه العقل الخالص ، ولكن مباحث البلاغة مذبذبة حيرى بين أيدى العلماء يردونها احيانا الى حكم العقل واحيانا الى حكم النقل واحيانا الى حكم الذوق ، ويجعلونها مرة من مباحث الالفاظ ومرة من مباحث المعانى ومرة من مباحث النظم والتأليف . فلا غرابة ان تتشعب بهم المذاهب وتتفرق بهم الآراء

روى الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين انه قيل للفارسى : « ما البلاغة ؟ » قال : « معرفة الفصل من الوصل . » وقيل لليونانى : « ما البلاغة ؟ » فقال : « تصحيح الاقسام واختيار الكلام . » وقيل للرومى : « ما البلاغة ؟ » قال « حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة . » وقيل للهندى : « ما البلاغة ؟ » قال : « وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة . » وقال بعض اهل الهند : « جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة . » اه

ذلك مثال تدركون منه مقدار اختلاف الاعاجم فى ماهية البلاغة . على اننا لسنا بصدد ذلك وانما الذى يعنينا هو مذاهب العرب فى البلاغة لا مذاهب العجم . وذلك هو الذى نحن بصدد الحديث معكم فيه

مباحث البلاغة فى اللغة العربية

ان اقدم ما نعرف من تاريخ العرب وما وصل الينا من آثارهم ليدلنا على انهم كانوا يتحدثون فى مناحى البلاغة ويبحثون عن وجوه الاحسان فى الكلام منذ الايام الاولى فى تاريخهم القديم . ولقد نظن ان العرب يمتازون عن سائر الامم بمزيد العناية بهذه المباحث والانصراف اليها

ويرجع ذلك الى طبيعة العرب اولا والى طبيعة اللغة العربية ثانيا

اما طبيعة العرب فلانها لاشك من اسلم الطبائع ونفوس العرب من اصفى النفوس وقلوبهم من اذكى القلوب ، ولا ريب فى ان العرب من ادق الناس حسا وانقاهم فطرة واكرمهم سجية

واما اللغة العربية فلأن فيها من المرونة مالا نعرف له فى لغة اخرى نظيرا . فى الكلمات مرونة تساعدك على ان تشتق من الكلمة الواحدة عشرات من مختلف الصيغ للدلالة على مختلف المعانى . وفى الجمل مرونة تساعدك على ان تتخذ من الجملة الواحدة صوراً كثيرة بالحذف والزيادة والتقديم والتأخير والتغيير والتبديل تبعا لاختلاف ما تريد الدلالة عليه من دقائق المعانى المختلفة . وفى هذه اللغة سعة لا نعرف لها فى لغة اخرى نظيراً . فهى لا تضيق بمخترع جديد ، ولا بمعنى جديد ، بل كلما احدثت لها موضوعا احدثت لك ما يناسبه من الاسماء والعبارات

من اجل مافى هذه اللغة من المرونة والاتساع مع ما اختصت به من الحركات والسكنات ، تمتاز العربية بأنها من اغنى اللغات مادة واوفرها اسلوبا وارحبها ساحة بضروب المجاز والتشبيه وسائر فنون البلاغة

ولستم تجدون اليوم فى جميع الأرض شرقيها وغربيها لغة قائمة وسعت ما وسعته اللغة العربية من صنوف الحضارة المختلفة وتقلبات الشئون عليها من نهضة وانحطاط وسلم وجهاد ، ومن تجمع الشعوب فى حماها من كل لون ولسان . ثم لم يصبها من ذلك ما اصاب غيرها من اللغات ، بل خرجت من كل ما ابتليت به حية سليمة قوية ، فكانت بين اللغات الحية فى عصرنا الحاضر من غير ريب اقدمها وجودا واصلبها عودا واجدها تاريخا . مزية خص الله جل شأنه لغة العرب بها منذ اختارها لسان دينه الخالد ولغة كتابه المحفوظ

من اجل مافى طبيعة العرب من ذكاء وصفاء وما فى لسانهم من متانة وسعة ، كان لمباحث البلاغة عندهم من الشأن اكثر مما عند الامم الاخرى ، فقد كانوا منذ عرفنا لهم تاريخا يتجادلون فى الشعر ويوازنون بين شاعر وشاعر ويفاضلون بين بليغ وبليغ

وما نظن أحداً غير العرب بلغ مبلغهم فى تعظيم الكلام البليغ وتقديره ، وما نظن انك واجد غير العرب امة لعب بها البيان فاقامها واقعدها وفرقها وجمعها ورفعها ووضعها

وما نظن احدا غير العرب استطاع ان يقول فى اللسان ماقال زهير :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته او نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وصف القلب

للاستاذ احمد الزين

من لقلب بين الجوانح عانى ... جمع اليأس والمنى في مكان
شاعر في الضلوع يخفق بالمعـ ... ـنى فيعيا عنه بيان اللسان
كم خيال له يضيق به اللفـ ... ـظ فيسمو اليه بالخفقان
وأمانيّ فيه كالزهر منها ... ما ذوى والقليل في ريعان
فهو راث لما ذوى من أمانيـ ... ـه ومستبشر بباقي الاماني
باكياً شجوه وآنا نراه ... يتغنى بأعذب الالحان
قطع العيش بين خوف وأمن ... ورجاء ناء وآخر دان
فتراه حيناً يلج به الوجـ ... ـد وحينا يلوذ بالسلوان
وتراه يسيل كالماء لطفا ... وتراه كالنار في الثوران
صامتٌ وهو لاينى عن حديث ... مطمئنٌّ في ثورة البركان
بالسلطانه القوي ولا شيـ ... ـء عليه في الارض ذو سلطان
لاتلمني اذا تبعتُ هواه ... هو بعضي وآخذ بعناني
كم حداني الى هوًى لم يدعني ... فيه أصغى لفكرتي وجناني
قادني للهوى ولو كان يدرى ... ما يلاقيه في الهوى لنهاني
لجَّ فيه فكان شراً عليه ... ليتني قد عصيته إذ عصاني
عصف الحب بالقلوب فقلب الا ... يأس في حربه كقلب الجبان
مضغةٌ في الضلوع يؤلمها المسّ ... غدت نهبةً لصرف الزمان
فوق موج الآلام تذهب حيرى ... كسفين تسرى بلا ربان
فهى بين الاحزان تفنى ويحيـ ... ـيها خيالُ التعليل والنسيان
جل من صاغها ميولا وأهوا ... ء ولم يعد طينةَ الانسان
ذبراها من الملائك نوراً ... تتراءى في صورة الجثمان
فهي بين الضلوع لا تملأ الكف ... وفيها صحيفة الاكوان

رجعة اوربا الى الاحتشام والتقييد (١)

للاستاذ محمود عزمي

شاهد المشاهدون منذ القدم وأقرهم الاجتماعيون فى العصر الحديث ، ان العالم تنتابه عواصف خلقية وتفكيرية كلما حلت به كارثة كبرى تخضعه لنوع من الحياة غير مألوف عادة . ويرجع علماء الاجتماع هذه الظاهرة الى رد الفعل المحتوم الذى يطلق الأعصاب اطلاقا بعد ان تكون قد قيدت على الرغم منها تقييدا . والحروب هى المثل الانشائية تضرب للكوارث الكبرى التى ينتاب البشرية من جرائها ما ينتابها من عواصف تتاخم الثورات فى كل شيء ، والتى يحمد الباحثون الاجتماعيون قيامها فى حياتهم اذ يعتبرونها تجربة اجتماعية لا يكتب لكثيرين ان يتتبعوا تفصيلاتها ويراقبوا تطوراتها ويستخلصوا احكامها

وقد قامت الحرب العالمية الاخيرة فى منتصف سنة ١٩١٤ وعقدت معاهدات الصلح الخاصة بها فى سنة ١٩١٩ — وان كانت مؤتمرات تسوية الصلح الحقيقى ما تزال تعقد الى اليوم — فوقعت تحت اعيننا تجربة من تلك التجربات الاجتماعية التى يلذ للباحث المحلل ان يشهدها مهما بلغت الاحزان التى تتفجر منها ، والحسرات التى تبعثها فى الأفراد وفى الجماعات بعثا . والناس مثابرون على اعتبار « باريس » عاصمة العالم كله يحسبون كل مايقع فيها من حوادث ويتجلى من مظاهر ممثلا لروح العصر مؤديا للاتجاه الذى تريد البشرية المتحضرة ان تقصد اليه . وهم الى جانب هذا مثابرون ايضا على اعتبار « باريس » متفوقة على غيرها من العواصم فى مظاهر الخلاعة و « السهولة » رغم الشواهد التى يلقاها الباحث الجدى منبعثة من اواسط برلين ولندن ونيويورك للدلالة على أن ما يسند الى باريس انما هو مسند الى ظواهر أكثر منه الى حقائق مادية . ومهما يكن من أمر فان مثابرة الناس على هذين الاعتبارين تدعو الى حسبان « باريس » أكثر البيئات ملاءمة للمشاهدة الاجتماعية التى تتصل بدرس موضوع الانطلاق التفكيرى والخلقى الذى يحتم وقوع الكوارث العالمية قيامه ثم يدرس رد الفعل المحتوم الذى يلى دوره دور ذلك الانطلاق الذى كثيراً مايعبرون عنه بالتراخى " Relâchement "

المرأة فى الانطلاق بعد الحرب الكبرى

ولقد كانت أولى زياراتى لباريس بعد إذ غادرتها فى سنة ١٩١٢ إثر اتمامى الدراسة فيها ،

(١) اخترناها من مقال نشر منذ سنوات

كانت فى ربيع سنة ١٩٢٠ فدهشت لما وجدت فيها هذا التراخى الذى كان راجعاً حتما الى انطلاق الأعصاب من تلك الحظيرة التى قسرت على البقاء فيها مدى سنوات الحرب ، والى اعتبار « الفردية » الذى تفشى فى الجماعة تفشياً خشى القوم أثره فى كيان الجماعة . فكنت لاترى للمجاملة مظهراً وكنت لاترى لمجرد الادب فى المعاملة مشهداً ، وكنت لاترى لتيار التلذذ والاستمتاع بكل أنواعه جسراً يقف عند حده . وكان أظهر مايتجلى اليك فى هذا المضمار تلك الهبة من جانب النساء الى التساوى بالرجال فى الزى والزينة ، والقيام بجميع أنواع الاعمال التى كانت الجماعة السابقة للكارثة الكبرى تعتبرها من اختصاص الرجل ، بل تعتبرها من التكاليف الملقاة على عاتق الرجل توقيراً للمشاق أن تحل بالمرأة ، ذلك المخلوق الدقيق بل ذلك الطائر الذى لا يطلب اليه إلا أن يحلق فى جمال السماء . وكنت ترى الى جانب هذا الذى يتجلى فى ميدان « الانطلاق والتراخى » مظاهرة أخرى فى نواحى الفن وقد هجمت على مبادئه السامية نظريات « المكعبات » كما هجمت نغمات الزنوج وآلاتهم المزعجة وأنواع رقصهم القريب من البهيمية الاولى . كذلك تملكت « الانفرادية » وظائف الاعضاء عند الرجال والنساء فتحكمت فيها الشهوات المطلقة حتى من قيود الطبيعة العادية ، بحيث أصبحت العلاقات الشاذة محل مباهاة النوعين ، الى حد أن أقيمت لها الأندية ، والى حد أن كونت لاجلها الجماعات الأدبية ، لا تقبل فى حظيرتها إلا من كان متصفاً بذلك « الانطلاق المقلوب » بل أسست جماعة نشر لا تعضد غير الكتاب الذين يتصفون بذلك الاتصاف الجديد . وكذلك كان الحال فى فن العمارة الحديثة ، وفى فن التأثيث الحديث ، حيث كان عدم القاعدة هو القاعدة وفوضى الضابط هى الضابط . وكان طبيعياً مع ذلك كله أن تتجاوز تلك الروح ميادين الزينة والخلق والتفكير والفن الى ميادين السياسة وأنظمة الحكم ، فكان طبيعياً أن ترى تيار « الشيوعية » يحاول دائما أن يجرف أنظمة الحكم المقررة

الرجوع الى النفس

وقد اتفق لى أن كنت أتردد على باريس مرة فى كل عام بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٣ فكنت أشهد تلك المظاهر سائرة فى سبيل التجلى بخطوات أوسع من تلك التى كنت لاحظتها فى سنة ١٩٢٠ ، وكنت اسمع أن التنافس فى هذا المضمار ضارب أطنابه بين باريس وبرلين الى حد أن « المتذوقين » للطراز الحديث كانوا ينتظرون أن تكون الغلبة آخر الامر لاهل الامبراطورية السابقة

ثم غبت عن «باريس» ست سنوات وعدت اليها هذا الصيف فلاح لى أن فى الافق أمارات على توجه جديد يريد أن يشمل الفكر والفن والخلق والسياسة جميعاً ، وأن هذا التوجه انما يقصد العودة الى شىء مما كانت تتصف به الجماعة الأوربية قبل الحرب من الاحتشام المفروض والتقيد المتعارف عليه . فحببت تلك الامارات ميلا الى التراجع الخير ، وأردت أن أسجل مشاهداتى

كى يطلع عليها قراء الهلال الشرقيون فيدروا ان تلك الهبة الاولى حداً قد وقفت عنده ، وان هناك تراجعاً قد بدأ القوم فيه . حتى لا يندفعوا هم فى ذلك التيار الذى وقف بالفعل عند من كانوا هم خالقيه . فلا نظل مدهشين فى تطوراتنا نستمسك لنسائنا بالحجاب الذى جاءنا عن طريق الفرس وقد نبذه الفرس أصحابه الأولون بالفعل ، ونستمسك بالطربوش على أنه لباسنا القومى فى حين أن اليونان أصحاب بدعته والاتراك وسطاء نقله الينا قد نبذوه نبذاً بالفعل

التقييد فى طرائق الحكم

شاهدت إذن بباريس هذا الصيف مظاهر عدة تدل على التراجع الحقيقى فى ميدان التفكير والاخلاق والسياسة ، قصد التقيد بما كان شائعاً قبل الحرب من قيود مصطلح عليها لفائدة الجماعة ولمصلحة التناسق الذوقى العام

شاهدت فيما يتعلق بالحكم وسياسته وبالنظم الاجتماعية العامة واتجاهاتها ميلا الى الجد فى أخذ الأفراد والجماعات . فقد كانت الظاهرة المتجلية فى حكم وزارة مسيو « بوانكارى » أنه كان كثير التهديد بالانسحاب من الحكم ، وكان كثير عرض الثقة بالوزارة كلما رأى مجلس النواب متباطئاً فى التصديق على مايقدم اليه من مشروعات . وكذلك كان حال مسيو « ستارديو » وزير الداخلية ـ وهو واحد من تلاميذ الوزير الكبير « كليمنصو » ـ فقد حمل على الشيوعيين حملات صادقة لم تخل هجمات بعض النواب عليه دون استمراره فيها بحزم وعزم عظيمين . وكان آخر ماصدر عنه فى هذا الميدان مقاومته لما كان الشيوعيون يريدون إقامته من مظاهرات عنيفة فى أول أغسطس الماضى بعد أن فشلت تدبيراتهم لعيد العمال عيد أول مايو . فقد أعد مسيو «ستارديو» عدته ومنع الضباط ـ ضباط البوليس وضباط الجيش فى حامية باريس ـ من أن يمنحوا اجازاتهم العادية وضعاً لقواتهم كلها تحت تصرف الحكومة يوم أول اغسطس . وأذاع أنباء هذه الاستعدادات فى مختلف الدوائر السياسية والاجتماعية فى باريس وفى غيرها من المدن الفرنسية ، فكان هذا الاستعداد وحده كافياً لعدم محاولة الشيوعيين القيام بأية حركة أو أية مظاهرة فى باريس ، بينما قامت حركاتهم ومظاهراتهم فى موسكو وفى برلين وفى فينا وفى غيرها

ولعل أكثر جدية من هذا وذاك تدليلا على التوجه الجديد الذى يبدو فى التفكير وفى الخلق العامين فى أوربا هذه الايام ذلك الكتيب الذى أخرجه مسيو « شارل بنوا » العضو بالمجمع العلمى الفرنسى واسماه « أمراض الديموقراطية أو فن الاستيلاء على أصوات الناخبين وعلى منصات الحكم » فقد ضمنه من الآراء الجريئة ـ وهو ذلك الحجة فى البحوث السياسية والاجتماعية ـ ماذهب به الى حد القول فى مقدمته : « انى انصح إذن بتغيير النظام . وانى أوضح فكرتى وأحددها فأقول انى أقصد بهذا تغييراً فى شكل الحكومة ، وبعبارة أوضح وأدق أقول بالعودة من الشكل الديموقراطى الى الشكل الملكى »

التغيير فى الموسيقى وفى الغرض

واذا نحن انتقلنا من ميدان الحكم والسياسة والنظم الاجتماعية الى المظاهر الفنية فانا نجد الناس قد ملت فى باريس الاقبال على « المراقص » الحديثة وعلى الاستماع الى نوع الموسيقى الزنجى الذى يرقص الراقصون على نغماته ، وأصبحوا يتمنون لو كثرت بينهم بيئات الموسيقى الانشائية ولو عادت اليهم طرائق الرقص الانشائى . ولعل النجاح الذى قابله الفنى الروسى الشهير « رياجيليف » - وقد توفى منذ شهرين - يرجع الى أنه كان يسعى فى أن يبعث على الارض الاوربية ماقضى البلشفيون عليه من فن روسى انشائى بديع في الرقص وفى الموسيقى

ثم ارجع ببصرك الى التصوير والنحت وما يعرض من آياتهما فى المعارض العامة والخاصة ، فانك لا ترى الآن غير مظاهر النظريات الفنية الجدية التى ابتعدت ابتعاداً عن ذلك التيار الجنونى الذى كان قد طغى على المعارض بعيد الحرب طغيانا بما كان فيه من ميل الى « الكوبيسم » و « الفوتوريسم » و « الداردايسم » . بل انك تجد الآن رجعة بديعة الى أحكام الفن الخالدة تطبق على موضوعات حديثة يتميز بها العصر الحاضر بلا شك . وكذلك الحال فيما يختص بفن العمارة وفن الاثاث ، تجد فيهما طبعاً الحديث من الميول والخطوط يميزها عن فن العمارة وفن الأثاث فيما سبق من عصور ، لكنك تجد فيهما أيضا ميلا الى الفائدة العملية والى الجمال الشائق ، تجد العمارات الجديدة «بسيطة» فى مظهرها لكنك تجدها قائمة على فكرة توافر وسائل الراحة كلها فيها ، فالأصول الجديدة تستلزم أن تكون النوافذ واسعة حتى يدخل الى الغرف الضوء والهواء . والاثاث هو الآخر حديث فى منظره لكنه قائم على فكرة الاستفادة من أجزائه كلها

التغيير فى الخلق

وتلك العلاقات الشاذة بين النوعين قد أخذ ظل عدم الاكتراث لها يتقلص ، فأصبحت تستمع فى كل مكان الى انتقادات مرة توجه الى «عصابات» الكاتب الشهير «اندرى جيد» ومن اليه من جماعته الخلقية والأدبية ، كما أصبحت تستمع الى عبارات الغضب يصب جامها على رأس « فيكتور مرجريت » ومؤلفاته الاخيرة . بل انك أصبحت تجد مسيو « كياب » مدير البوليس الباريسى يجرؤ على أن يمنع تمثيل روايات يعرض فيها ذلك النوع من العلاقات الشاذة التى كانت تعرض على الجمهور فلا يرى فيها منكراً ، بل ان الجمهور نفسه قد أصبح فى باريس يطالب البوليس بتحريم تمثيل هذه الروايات . وقد حضرت ليلة مغادرتى باريس فى أواخر شهر اغسطس الماضى رواية اسمها « كارنافال » قابلت على أثر تمثيلها مؤلفها فاعترف انه اضطر أن يميل بنظرتها الى التيار الخلقى حتى لا يغضب الجمهور وحتى لا يناله غضب مدير البوليس فيحرم تمثيلها أيضا

خدمة الفكر في عصر المادة

بقلم الاستاذ اميل زيدان

نزاع الفكر والمادة قديم لم يخمد يوماً . ومع أن الغلبة فى النهاية للفكر ، فدون تغلبه عقبات وأهوال وضروب من الالم والاضطهاد

أجل يفوز الفكر فى آخر الامر ، ولكنه لا يبلغ القمة الا على اشلاء خدامه

كل المراحل التى قطعتها البشرية انما كانت بفضل فئة ممن فى صدورهم لهب مقدس . ولكنهم — وأسفاه — كانوا فى الغالب يحترقون ليبددوا الظلمات ويضيئوا العالمين

☆ ☆ ☆

قال برليوز الموسيقى الكبير وهو على فراش الموت : « الآن ستذيع مؤلفاتى وتتداولها الايدى ! »

هذا فى الغالب نصيب رجال الذهن وخدام الفن . فانهم ما برحوا منذ القدم مغموطى الحق لا ينالون الجزاء العادل لما ينتجون . وكثيراً ما يقضى العبقرى حياته فى شقاء العوز ، حتى اذا قضى نال من التقدير ما لو نال بعضه فى حياته لرد عنه غائلة الدهر وأتاح له العيش فى رغد وهناء

وهذا الاجحاف قد زادت وطأته كما زاد قبحه فى كنف هذه الحضارة — هذه الحضارة التى سخرت المادة وأقامت على أساسها صرحها العظيم فاذا بهذا الصرح يخنق روحها ويكتم أنفاسها . . فبعد أن كانت المادة هى الخادم أصبحت هى المخدوم . . .

إن حضارتنا الحالية مصابة « بتخمة » مادية . فقد طغت المادة على الفكر وأصبحت الكلمة لها فى البدء وفى النهاية . فقيم الاشياء وقيم الناس مرتبة بحسب سلم حسابى مادى لا شأن فيه للعناصر الروحية . فجمال النفس لا يكاد يقدم فيه درجة ولا سمو الفكر أو رقى الفن والادب

فكم حولنا من ثراء وقح هبط عفواً ، وكم من ذهن يتألم وهو عامر بضروب الحسن الروحى . كم من « بضاعة مادية » تافهة تروج وتجلب لاصحابها أطيب المتع ، فى حين لا يجد أصحاب « البضاعة الذهنية » منفذاً لافكارهم أو متنفساً يخفف الضغط عن صدورهم !

☆ ☆ ☆

لا يسع من ينشد العدل الا أن تثور نفسه أمام هذه المظالم ، ولكن هذه الثورة لا تتعدى فى الغالب سناً معينة ، ففى عهد الشباب حين يستفزنا كل ما هو جميل ويملك علينا مشاعرنا نحس

الحيف الواقع على خدام الفكر والجمال وتتألم نفوسنا لدى المحن التي تصيبهم ، حتى اذا فعلت الايام فينا فعلها تبلدت مشاعرنا وتيبست عواطفنا وألفنا ما حولنا من صنوف الظلم

أن غضبات الشباب وثوراته الجميلة لاتلبث حتى تتحول مع السنين الى رضى بالامر الواقع واستسلام لاحكام الزمان — وكم للزمان من حيف وإرهاق !

✡ ✡ ✡

من هؤلاء المظلومين فئة أود أن أخصها بكلمة وهي فئة الادباء والشعراء . وهل من حاجة الى تبيان شأن هذه الفئة في حياة الامة ؟ من الناس طائفة عميت قلوبها إلا عن مطالب الجسم ، يسألونك : مافائدة الادب وما فائدة الشعر ؟ وما سؤالهم هذا إلا كمن يسأل : لماذا خلقت الازهار ولماذا تصدح الاطيار في الحقول ؟

خلق الانسان وله رجلان يمشي بهما على الارض ولكن له أيضاً عينين يجوب بهما أطراف السماء ، وله كذلك وجدان يحلق به في الفضاء غير المتناهي . فالنزوع الروحاني أصيل في طبيعته وليس بالخبز وحده يحيى الانسان

ثم اسمع قول جوته : ان انحطاط الادب في أمة نذير بانحطاط تلك الامة

واسمع قول الآخر : الامة التي ليس لها أدب قومي حقيق بان يعدو حدود بلادها — هذه الامة تظل محتقرة لاشأن لها في نظر الامم الاخرى

فالادب اذن لاتقتصر فائدته على ماينشره في النفوس من لذة روحية ومتعة ذهنية ، بل هو عامل خطير في تعزيز الحياة القومية ورفع شأن الشعوب

✡ ✡ ✡

ولو أن النفس تبدو للعين كما يبدو الجسم لتغير نظرنا الى الناس ايما تغير .. فكم من جميل يصبح قبيحاً ، وكم من قبيح يصبح جميلا !

ولكن سواد الناس قلما يحفلون بما يجاوز حواسهم ، فهم يحكمون على ما يرون ويسمعون ويلمسون . . . على أن سمة الرجل « المثقف » انه لا يقنع بما يبدو له أول وهلة بل ينفذ بفكره إلى الباطن باحثاً عن الجمال الخفي — جمال الذهن والروح

✡ ✡ ✡

حبذا العلم بدون هموم المادة ، وحبذا الفن والادب بدون ارهاق الحاجة . . . ولكن الاقدار قد حكمت بغير هذا ، فالعالم والفنان والاديب وسائر خدام الفكر والذهن في معين يقوم على اكتافهم رقي البشر وتقدم الحضارة ، لا ينالون عشر معشار ما يستحقون

فهل من وسيلة الى تلطيف هذا الحكم القاسي ؟

أمامنا ظالم ومظلوم . فلننظر قليلا في أمرهما :

أما الظالم فهو المجتمع أو بالحرى نظامه الذى قصر عن إعطاء كل ذى حق حقه . فكيف نهديه سبيل الصواب والانصاف ؟

ليس ثمة غير وسيلة واحدة : تهذيب الرأى العام ورفع مستواه بحيث تعدل فى نظره قيم الاشياء وقيم الناس فيضع فى الرأس من هو حقيق بالرأس وفى الذنب من كان بالذنب احرى

واذا كانت الامة كالجسم فرجال الذهن منها بمنزلة الرأس ، هم الدماغ الذى ينبغى أن يسيطر على الاعضاء ويقوم لديها مقام المرشد الهادى

هكذا صور أفلاطون جمهوريته الفاضلة فقد وكل أمرها للحكماء والعلماء

ولكن الوصول الى هذه الغاية يقتضى أجيالا من التهذيب — يجب أن نروض نفوسنا على اكبار العناصر المعنوية واحلالها المحل الارفع من حياتنا . يجب أن تصبح الثقافة فى نظرنا بمنزلة الحاجة التى لاغنى عنها — وما هى اليوم الا فى عداد الامور الكمالية

وأما المظلوم فهو العالم أو الاديب أو الشاعر أو غيرهم من صرعى الحقيقة والجمال — فهل فى استطاعة الواحد منهم أن يخفف شيئاً من وطأة الظلم الواقع عليه ؟

أجيب بلا تردد : نعم فى استطاعته أن يدبر أمره إلى حد كبير . لقد ألفنا أن نسمع عن رجال الفن والادب أنهم لايحفلون بالماديات — كأن العوز زينة الفنان والاديب ، وعرفناهم يأنفون من النظام والترتيب ، فنفوسهم أبداً متمردة تأبى الخضوع والانقياد

ولكن هل يضرهم لو أنهم حسبوا لهذه الدنيا حسابا ولو ضئيلا ؟ ليقدس الفنان فنه وليقدس الاديب أدبه . . . ولكن هل يستدعى ذلك أن ينسى حقائق الحياة الأولية ؟ كلا . . . يمكنه ان يحفظ فنه أو أدبه فى منجاة من كل درن وفساد ، وفى الوقت نفسه يلتفت الى مقتضيات العيش فيمنحها قسطاً من عنايته ، بل أذهب الى أبعد من ذلك فأقول : انه اذا عرف كيف ينظم حياته من الوجهة المادية سهل عليه أن يحتفظ بفنه سليما وبأدبه معززاً نقياً

اذا كان للاديب أو الفنان ان يحتقر الماديات فلا يستعبدن نفسه لها ، فما الحاجة الا نوع من العبودية ، فليضمن لنفسه الكفاية اولا — بأدبه او بوسيلة اخرى — حتى اذا ضمن القدر الادنى امكنه ان ينصرف لما يصبو اليه فؤاده من مناجاة آلهة الفنون الرفيعة

والخلاصة ان المجتمع مقصر فى منح رجال الذهن مكانهم الجدير بهم ولكن رجال الذهن — ايضا — كثيراً مايقصرون فى مسايرة المجتمع وادراك مقتضيات العيش

يجب على المجتمع ان يفهمهم كما يجب عليهم ان يفهموه

في عيد القضاء الاهلي

من قصيدة للاستاذ عبد الله عفيفي

يا منار العدل في ساح القضاء ... لا يزل مغناك مرفوع البناء
أنت نور الله في آفاقه ... للبرايا ، أنت وحي الانبياء
أنت ظل الله في سلطانه ... أنت رمز الود فيه والاخاء
لك في « مصر » بناء راسخ ... شامخ الاعراف ، خفاق اللواء
كتب الخلد على أبوابه ... في سناء الحق سطرا من ضياء
أيها المظلوم في هذا الورى ... قف ! فهذا الباب من باب السماء
إرفع الرأس ففي هذا الحمى ... يشمخ الضعفى ، ويعنو الاقوياء
منطق المظلوم فيه من شبا ... ويد الجبار فيـــه من هباء
إن هذا الحق سيف مصلت ... مرهف الحدين مرهوب المضاء
لا يبالي أي رأس مسه ... قد تساوى الخلق من ذئب وشاء
هم سواء مثل ما صورهم ... بارىء الاحياء من طين وماء
أيها الشادي ببرلين استمع ... إن في مصر قضاة وقضاء
بلد هبت عليه نفحة ... من جلال الحق تحيي من تشاء
بسط العدل عليـــه ظله ... فتوافى كل حر واستفاء
وسرى الشرق اليه واحتمى ... وسعى العلم ، وحج العلماء
ونمى الفكر بها في روضة ... في ثراها كل أسباب النماء
حين كان الشرق بحراً من دم ... ومزاجا من حتوف وشقاء
شرد الاحرار فاستنوا الى ... وطن الحر ودار النزلاء
هي مصر ، لم تزل مهد الهدى ... وحمى الحق ، ومشكاة الرجاء
حي ذكرى العدل فيها انها ... مطلع المجد وعنوان السناء
بنت خمسين ، سمت من عنصر ... أزلي الاصل ، درى الصفاء
أزهرت في روض « عمرو » وزكت ... بعد « عمرو » في رياض الخلفاء
وتولاها « فؤاد » فاستوت ... في سواء يملأ الارض الفضاء
ملك في عدله أو فضله ... آية للحكم أو للحكماء
« عمر الفاروق » ان شبهته ... وأبو « الفاروق » في العدل سواء

ضمير قلق

بقلم الدكتور منصور فهمى

اليوم لا علماً أكتب ولا منطقاً إنما هو حديث فتى مهموم فى لحظة من تلك اللحظات التى تبعث فيها النفس أعز مكنونها من الشعر والاحساس . حديث فيه تاريخ حال من أحوال نفس بشرية ، يظفر منه القارىء بجزء صغير من أجزاء تلك الحقيقة الكلية العظمى التى لو استقصيتها لوجدتها مجموعة لتاريخ الكون فى جزئياته ، وان أكرم قسم فى ذلك التاريخ ما تضمن أحوال النفوس ومنازعها

قال الفتى : -

انك تحسبنى يا سيدى من أهل السرور وأنصار الصفاء ، يغريك بذلك ثغرى الضحوك وارتفاع صوتى فى محافل الانس والطرب والتماس المجون فى كل إشارة وكل عبارة . على انك قد نسيت أيها العزيز تلك الاوقات التى ألبث فيها ذاهلا عن الناس وأحاديثهم فتنسدل على وجهى سحابة من الحزن ، لا تترك لناظر فيه ان يتبين علامة من علائم النشاط والامل ، ولا تبقى من إشراقه ونضارة الشباب فيه إلا بسمة خاصة أوهم الناس بها انى معهم فيما يقولون وأفكر فيما يرتأون

إنه ليخجلنى البقاء ياصديقى فى جمع من الجموع وعلى مسوح السواد بينما تكون الناس راغبة فى المسرات واقفة عند أبوابها . ولقد أعمل جهدى على صد غارات الحزن المتتابعة على نفسى كما تتلاحق الامواج المرهوبة على جرف حطيم ، وحينئذ أعمد إلى البعد عن الناس حتى لايشذ لباسى الاسود من الأسى عن سرابيلهم النضرة من السرور

كنت أومن بطهارة الحياة إيمانا وكنت أحسن الظن بالناس أيما إحسان لانى لم أخرج إلى ساحة العيش إلا من عهد كما علمت قريب . وكنت عند عهدى بالشباب تلميذاً مجـــداً كثيراً ما لابست الكتب وانقطعت للدرس ، وقليلا مالابست الناس ونظرت فى شؤون الحياة . ولقد جعل القضاء لطائفة من الكتاب الخياليين على سلطاناً . فكنت أصبو صغيراً للصور الجميلة والخلال الكريمة والاشباح الشريفة التى كانت تخرجها أذهانهم قبل ان أتصل بحقائق الحياة المرة المؤلمة

خرجت من عالم الكتب إلى عالم الناس ، وكنت أتوهم ان الناس تلقوننى لأعمل معهم وأكتب

تحت أعينهم صحيفة من سفر الحياة الواسع ، فأملأها برسوم الحق والواجب وآثار العمل والأمل وأصور فيها صورة الأب الصالح والزوج الوفى والوطنى الصادق والانسان العادل فى نفسه وفى الناس . وكنت أظن ان كلمات الحرية والاخلاص والفضيلة والرحمة والكمال وأمثالها مما وسعه المعجم تسعها معاملات الناس بعضهم لبعض . على اننى صدمت صدمة بالغة حين رأيت ان الناس يسيرون على خلاف ما كنت أظن وان الحياة تكاد تكون جارية لمقادير غير ما كنت أقدر وان السجايا التى كنت أظنها من صفات البشر انما هى لمخلوقات خيالية تبصرنا ولا نبصرها وترانا ولا نراها

هالنى وأفزعنى ان أرى فى الحياة مسرحاً واسعاً للنفاق والرياء والخداع والاباطيل ، وان هذه الأشباح الشنيعة قد صرعت تلك المخلوقات الشريفة التى نسميها الفضائل ، واستبدت وحدها بميدان الحياة كله

تساءلت : أكانت الكتب تخدعنى وتغير صور الاشياء فتجعل ضعفاء الحقيقة هم الاقوياء وأقوياءها هم الضعفاء ؟ ؟

أم هو الوجود لم يبلغ بعد فى تاريخ نشوئه طورا تنال فيه الفضائل منازلها من الكرامة والاجلال وتسير فى المعاملات كأنها الكواكب تجرى فى داراتها على سبل ممهدة فتصبح حينذاك القوة والغلبة ميزة للسجايا وحدها ؟!

ثم تساءلت : هل فترة الحياة من شأنها أن يظل فيها أشباح خيالية تتخذ وكرها فى رءوس البشر وتشبه الاملاك فى نورانية أجسامها وتغرى النفوس بالنزعات العالية ؟ أم توجد كرام السجايا حقاً عند أفراد اغنياء بأنفسهم عن الناس معززين منعمين بمداعبتها يحسبهم الجهال مهزومين وهم يعيشون كآلهة الاساطير يسخرون من نعيم الناس ولهم من أنفسهم اكبر نعيم ؟

وقلت فى نفسى بعد ذلك كله هل القوى فى الحياة الاجتماعية : هو من يخضع لنواميسها من الرياء والظلم فيخدع ويظلم ، أم هو الذى يحتقرها فى قوانينها ليعيش تحت راية مبادىء أخرى تنسجها له تصوراته وخيالاته السامية ؟ ؟

إن منشأ همى يا سيدى هو ذلك التنازع القائم بين ما تحن اليه نفسى ونزعاتها وبين المبادىء التى يقوم عليها المحيط الذى يضمنى

أأعيش منفردا واحدا فى عالم الخيال أم أدخل إلى ساحة البشر وأخلع ثوبى الجميل الكريم ؟!

في الحركة الوطنية (١)

للاستاذ مصبن شفيق المصري

تنكب طريقك لا تسلك ... فان الطريق الى مهلك
نعم أنت أعزل اعشى وحيد ... تثير الجلامد لو تشتكى
وبالجزع قامت جموع الكماة ... وكل على سيفه متكى
لديهم قواذف ترمى الرصاص ... صواعق ما تنطلق تفتك
بأيد خلقن لسفك الدماء ... وللشر لولاه لم تسفك
طغام طغاة بغاة يبيحو ... ن قتل المصلين في المنسك
وعذراء آمنة تتهادى ... الى اين ويحك لاتهتكى
ومن قبلها هتكوا المحصنات ... وشدوا عليهن في معرك
ويا طول ما تذرف العين اد ... معها للذى جاء في مألك
كتاب لانبائه في الفؤاد ... كوقع الشهاب أو النيزك
لما كان فى بدرشين فمزغون ... فالعطف فالصف فالشوبك
فوادي القرى من رشيد فدميا ... ط فالشاطئين الى الكرنك
بلاد دهاها العدو على ... غرة بالموحد والمشرك
بجند كسخرة المهرجان ... من الهند من برهم يضحك
وفتيان لندن من كل امرد ... غر وذى الشيبة الانوك

---

(١) من قصيدة نظمها الشاعر سنة ١٩١٩ عقب حوادث البدرشين وهجوم العساكر على بيت الامة وهروب السيدات

جلنار (١)

بقلم الدكتور بشر فارس

حكى ان جلنار كانت مالكة على مدينة من مدن فارس . . .

ولما جن الليل انتبذت جلنار ناحية من خدرها وكانت الجنوب قد خف هبوبها وحملت على جناحيها أريج الازاهير فنشرته فى الحجرة ، وأشعة القمر الفضية تنعكس فى حوض مزين بأجمل الزخارف . وكأن الفوارة وهى تدفع ماءه معولة لا ترتضى سلوى ولا عزاء . وكأنى بها اذا سكتت محتضر انقضت أنفاسه . وكان النسيم يداعبها ويعبث بالماء الذى تدفعه لعلها تصفر طرباً ، غير انها أضحت وقد تبين فى نغمتها الشجو والأسى . ففيما الحوض كان يرن من قبل رنين الثكلى إذ صار الآن غديراً ساكناً تألف ماؤه من أدمع منسجمات بين صفحتيها نشيج خافت

أثر منظر الحوض وصوت فوارته فى جلنار تأثيراً بلغ بها من الاضطراب مالا تطيق . فجعلت تفكر فى حالها كيف تغير منذ الساعة التى نظرت فيها الى الامير ، وهى لم تكن لتعلم ان شعوراً جديداً آخذاً من قلبها مأخذاً بليغاً قد لطف حتى دق عن فهمها . وكانت ترنو من حين الى آخر الى الباب ، ثم تدير عينيها الى النافذة وتتبع سكنات القمر فى بساط السماء ، ثم تعود ببصرها الى الحوض فيخطر لها ان تقذف بنفسها فيه رجاء ان تسكن من لهيب جسمها ببرودة الماء

وان جلنار لكذلك والسكون منبسط فى جنبات القصر لا يمزقه الا صيحات الحراس ونبرات البلبل . إذ صر الباب ومثل به ذلك الامير العربى محجوب الوجه اكحل العينين . فنظرت الملكة اليه لحظة ، لم تقو فى أثنائها ان تحدثه كأنها ذعرت من أمر فوجئت به . وأما الامير فظل جامداً فى مكانه وجعل يصرف بصره فى زوايا الحجرة كأنما هو بائع أثاث يقيم لما تضمه الحجرة الوزن الذى يراه له . ثم ان جلنار أشارت اليه : أن اجلس قبلى . فامتثل الرجل صامتاً . فقالت له جلنار وفى صوتها شىء من الرعدة : ما سكوتك ياضيفنا ؟ قال : انما سكت اذ لايجدر بى ان أكلم الملكة ـ جعلنى الله فداها ـ قبل ان تفسح لى فى الكلام . فبسمت جلنار وأسندت رأسها الى يدها ، ثم قالت : صدقت يا أمير فزدنا . ألست القائل انك أسبق العرب فى فن الحديث ؟ قال : ذلك قلت . قالت : ايه لقد ضافنى الهم ليلتنا هذه فعسى أن تحسن الينا فنحسن اليك . قال : على ذمة لا ذقت طعاماً ولا شراباً حتى أقضى عند الملكة ـ أكرمها الله ـ ما أنا قاض ، وأما جزائى فحسبى

(١) خلاصة قصة نشرها الكاتب بالمقتطف

انى اليها جالس واياها أحدث . ثم جلس جلسته وشرع يروى قصة جميل وبثينة تلك القصة التى ظلت حديث الناس زماناً طويلا . فبسط كيف نشأ جميل فى قومه وكيف كان شاعراً مرقا مقلا . ثم انصرف الى حكايته مع بثينة وفراره من وجه الوالى ، ثم نزوله على بنى عذرة فى الشام والحيلة التى احتالها عليه ضيفه اذ زين له سبع كعاب متبرجات على ان تقع احداهن من نفسه . ثم خبر كيف كان المحبان يلتقيان فى الخلاء ويتعاتبان ويتراضيان ويشكو كل واحد ما يقاسي فيؤاسيه الآخر . ثم ذكر كيف نال الحب من قلوبهما منالا عنيفاً لا سبيل عنه . وكيف تزوجت بثينة رجلا غير جميل ولم تنفك ترعى لجميل الذمة والميثاق وتحفظ له فى قلبها مكانته السابقة ، وهى تحبه حباً جماً لا ريبة فيه ولا شبهة . وكيف وشى بها ظلما عند أبيها وقد كلف بها جميل وهام من أجلها ثم نهى عن لقائها . فكان يصعد ليلا إلى ربوة ليستروح النسيم المقبل من نحوها وهو ينشد الاشعار ويبكى سوء طالعه . وكيف كان يتنكر ليستطيع الوصول اليها . فاحتبسته بثينة فى خدرها ذات مرة ثلاث ليال وهو مستخف تحت ثياب متسول مسكين . وكيف كان يغنى وهو فى الركب فتسمعه بثينة من دون أترابها وتقبل اليه . ثم روى كيف ضج أهل بثينة وخشوا الفضيحة واستباحوا عند الامير دم جميل فقصدوا إلى أبيه ونشدوه الله ان يدفع ابنه عن فتاتهم . فدعاه أبوه وقال له أو ما تكف عن حب حرة تضمر لبعلها ما لا تضمره لك ؟ فبكى جميل وأبكى من حوله ثم انطلق إلى مصر حيث مات كمداً

تلك القصة التى أبدع الامير فى روايتها ما شاء أن يبدع . وكانت جلنار تقاطعه فى مستهلها فتسأله عن هذا وتستزيده من ذاك . ثم انها ما عتمت ان لزمت السكوت وجمعت للحديث بالها مخافة أن يفلت منها حرف . وكانت تزداد اضطراباً كلما ازداد الامير بيانا . وكانت تتبع إشاراته وكلماته حتى أمست أسير حديثه ولفتاته

وكانت حالها فى ذلك حال كل فتاة قضت صباها لا تلتمس السبيل إلى الحب ولا تقطع بشيء من أمره ، بل لا تعرف منه كثيراً ولا قليلا . فنشأت ساهمة بعيدة من مضطرب النزعات والاحساسات التى لابد لها أن تؤاتى النفس فى حين قد أتيح لها . وكأن قصة جميل وبثينة أصابت من نفس جلنار موضعاً دقيقا اندفعت منه عاطفة الحب بقوة . وذلك هو الحب الثائر الذى احتجب دهراً وتجمد فى القلب وتمكن بين جنبيه مثل الغمام المتلبد فى زاوية من السماء ربما لبث يوماً أو يومين على حالته حتى تمر عليه ريح باردة فتفرده مطراً

وكانت جلنار تصيح فى وجه الامير إذا هو أكبر شغف بثينة بجميل : أفى استطاعتنا معشر النسوة أن نحب مثل هذا الحب ؟ كأنما الامر من وراء علمها فعظم عليها وقوعه . وان رد الامير لغم جميل واشتكى حظه استدمعت وقالت : بأبى أنت وأمى لو أحبنى جميل ما حال بينى وبينه إلا خروج نفسى . . .

مقتطفات

للدكتور احمد زكي ابو شادى

النجوم

بُعثرَت فى السماء حتى تَراءى ... خالقُ الكونِ مسرفاً في نظامه
حاكت الضَّائمات من مهج الخلـ ... ـق ، فكلٌّ بشعلةٍ من غرامِهْ
وتراءتْ حيناً لنـا قُبـلاتٍ ... من فم الدهر في عصور ابتسامِهْ
ثم حيناً تلوحُ مثـلَ ثقوبٍ ... خلفها الغيبُ رابضٌ فى غمامِهْ
ينفذ الشـاعر العظـيم اليها ... حين يَخشى القضاء بأس اقتحامه
فإذا عادَ بعـد إسرائهِ الـكا ... شف أعيا الانام مغزى كلامهْ

نشوة اليأس

دعوني أناجى اليـأس في نشوة اليأس ... ولا توهموني أنـ حولى ما يُنْسى
أعيش بأرضٍ للشياطين والاذَى ... تُصبحُ في رِجْسٍ وتمسي على رِجْسِ
حرامٌ علينا مأملٌ في رُبوعها ... وفيها تجلى مَصرَعُ الفكر والحِسِ
علامَ التمادى في المنى حيثما نرى ... ضحايا المنى أضحوكةَ الحظِّ والبؤسِ ؟ !
أنعلق في الآمال بالبلدِ الذى ... يصولُ به من ضالَ بالشر والدسِّ ؟
خفافٌ الى الإفساد فى كل مطلبٍ ... ثقالٌ على الاحسانِ ، حَرْبٌ على النفس
يباهون بالايذاء حتى كأنما ... يبزون في الهيجاء عنترة العبسى !
عجبت لشمس أشرقت فى سمائهمْ ... وقد خلقوا حرباً على النور والشمس !

فلسفة الحب عند العرب

كيف اهتم حكماؤهم بالكتابة فيه وتحليل مذاهبه

بقلم الاستاذ طاهر الطناحي

قبل أن اطرق هذا البحث كنت قد قرأت شيئاً غير يسير من أخبار المحبين ومصارع العاشقين ومحن الظرفاء الوالهين ، الذين امتحنوا بالحب فى الجاهلية وصدر الاسلام وفى عهد ازدهار الحضارة العربية فى بغداد والاندلس وفى غيره من العهود الاخرى التى اشتهر فيها أمر الحب والمحبين ، وكانت لهم سير وأخبار يرويها الرواة ويسطرها الادباء كذخيرة أدبية يسجلونها للاجيال القادمة ، ويضنون عليها من الضياع والنسيان

وما كان ليدور بذهنى أن فلاسفة العرب — على سعة باعهم — سيهتمون بالحب والبحث فيه بحثاً فلسفياً ، ويأتون فى ذلك بما لم يأت به فلاسفة اليونان الذين تناولوه بالبحث قبلهم ، خصوصا وقد رأيت ان كثيراً من رواة الآداب العربية لم يهتموا إلا بجمع سير المحبين ، جمعاً ليس فيه شىء من الفلسفة او البحث العلمى الذي يشترك فيه العقل والتفكير . وملأوا من ذلك كتباً ضخمة ، وتفرق جانب منه فى مؤلفات الادباء ودواوين الشعراء . حتى اصبح للحب من الادب العربى الحظ الاوفر . واصبحنا نرى بين أيدينا من آداب العاشقين ومن نسج على منوالهم بالتقليد ما يكاد يربو على النصف

وما كنت لأتجنى على الادب العربى لوفرة ما فيه من « أدب الحب » وأنا أعلم ان هذا النوع موجود بكثرة أيضا فى سائر اللغات ، وأن الحب قديم فى البشر ، وأنه موجود فى فطرة الانسان منذ وجد الانسان . بل هو موجود فى فطرة الحيوان . وربما يمكننا أن نقول انه موجود فى فطرة النباتات وسائر الموجودات على ما ذهب اليه « ابن سينا » — وليس هنا مقامه — فهو فى الحقيقة السبب الاقوى فى وجود الكائنات على اختلافها من حيوان ونبات وجماد

فليس عجيباً إذن ان يستوعب « ادب الحب » جانبا وافراً من الادب العربى . وأن يحرص الرواة على جمعه وتسجيله ، ولا سيما أنه حوى من جمال الفن مالا يوجد فى كثير من الآثار الادبية الاخرى ، وانما العجيب أن يخلو معظم هذه الكتب الضخمة من البحث فى ماهية الحب وتعليل اسبابه ، وهل هو اضطرارى او اختيارى ؟ وهل هو داء حقا كما يزعم المحبون ؟ وكيف يحب الانسان . وكيف تؤثر الصورة الجميلة فى نفسه ، فتقع من قلبه موقعا لا يستطيع الخلاص منه ؟ إلى

غير ذلك من البحوث الفلسفية والنفسية التى أعتقد أنها لو عنيت بها معاهد التعليم لكان لتدريس هذا الجانب من الادب فائدة لا يجنيها الطلاب والمتأدبون من مطالعة سير العاشقين واستظهار اشعارهم

ولقد كدت أظلم ادباء العرب وفلاسفتهم كغيرى ممن يظلمونهم ويحكمون عليهم حكما فطيراً بلا روية ولا تفكير . وكنت قد اغرمت بالاطلاع على تاريخ الفيلسوف الاندلسى « أبى محمد على بن حزم » المتوفى فى القرن الخامس الهجرى ورغبت كل الرغبة فى تصفح مؤلفاته لعلمى بما بلغه هذا الفيلسوف من نضج العقل وسداد الرأى وصحة التفكير ، فضلا عن سعة اطلاعه وادبه الوافر الذى يتسم به فى مؤلفاته . وقد علمت فيما قرأت له انه قد تورط فى الحب واصيب بدائه وانشأ فى ذلك شعراً كثيراً أودعه كتابا سماه « طوق الحمامة » لم يذكره إلا صاحب « نفح الطيب » إذ قال :

« قال ابن حزم فى « طوق الحمامة » انه مر يوما هو وأبو عمر بن عبد البر صاحب «الاستيعاب» بسكة الحطابين بمدينة اشبيلية فلقيهما شاب حسن الوجه . فقال أبو محمد : هذه صورة حسنة . فقال له أبو عمر : لم نر إلا الوجه ، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك . فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عذل فيمن سبانى حسنه ... يطيل ملامي فى الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره ... ولم تدر كيف الجسم انت عليل
فقلت له اسرفت فى اللوم فائذ ... فعندى رد لو أشاء طويل
ألم تر انى ظاهرى وانتى ... على ما ارى حتى يقوم دليل »

وقد كاد هذا الكتاب يضيع لولا أن الدكتور « د . ك . بيتروف » الاستاذ بالجامعة الامبراطورية فى بطرسبرغ قام بنشره سنة ١٩١٤ ووضع له مقدمة طويلة باللغة الفرنسية . وأتيح لى ان أطلع على نسخة من هذا الكتاب الذى طبعه الدكتور «بيتروف» فى مطبعة بريل بمدينة ليدن فرأيت شيئاً جديداً فى التأليف عن الحب وأخبار المحبين ، وشاهدت فيه كثيراً مما كنت أصبو اليه من البحث فى فلسفة الحب ، وأبصرت فيه عدة ميزات لم أجدها فى غيره ، أهمها أنه اعتمد فيما ذكره على ماشاهده وحدثه به الثقات من أهل زمانه . ولقد ذكر فى مقدمته انه الف هذا الكتاب اجابة لمن طلب منه أن يضع رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله ، على سبيل الحقيقة بلا مغالاة ولا ايراد للخرافات . وقد استشهد ابن حزم فى جميع أبواب الكتاب بشعره هو دون غيره . فلم يورد لأحد من المحبين شعراً فى هذا الكتاب وان كان قد أورد أخبارهم . وهذا يرجح عندنا أن ابن حزم قد وضع هذا الكتاب ليكون ديواناً لاشعاره الغرامية . ولكنه أراد أن يضيف الى ذلك فائدة لا توجد فى دواوين المحبين فبحث فيه عن ماهية الحب وأسبابه وتكلم عن الحب فى النوم وعن الحب بنظرة واحدة وعن المراسلة والسفراء والوصل والهجر والغيرة وأنواع العذال والرقباء والواشين ، إلى غير ذلك مما انقسم فيه البحث إلى ثلاثين بابا

هل كتب فى فلسفة الحب غير ابن حزم من علماء العرب ؟

يقول ابن حزم فى مقدمته مخاطباً من طلب منه وضع رسالة فى هذا الموضوع أو من انتحله ليسند اليه الخطاب ويدعى أنه طلب منه وضع الرسالة : « ودعنى من أخبار الاعراب المتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا . وقد كثرت الاخبار عنهم . وما مذهبى أن انضى مطية سواى ولا أتحلى بحلى مستعار »

ويؤخذ من ذلك ان ابن حزم قد اختط فى تأليف هذا الكتاب خطة ليست لغيره . ولم يسبق لأحد من فلاسفة العرب وأدبائهم أن يختطها قبله ، لانه لا يريد — كما يقول — أن ينضى مطية سواه ، ولا أن يتحلى بحلى لا يملكه . وجدير بابن حزم وبمكانته من العلم والادب والفلسفة أن يسلك سبيلا لم يسلكه أحد قبله ، وأن يكون غيره من بعده عالة عليه ، لا أن يكون هو عالة على غيره

وقد يكون ابن حزم صادقا إذا أراد ان فلاسفة العرب لم يسبقوه الى تلك الطريقة التى انتهجها فى الكتابة عن الحب . أما إذا أراد ان احداً منهم لم يسبقه الى البحث فى فلسفة الحب أو الكتابة فى ماهيته وتحديد كنهه ، فليس ذلك من الحقيقة فى شىء . فالجاحظ فى القرن الثالث الهجرى تكلم عن الحب وعرفه تعريفا يكاد يقرب من الفلسفة وان غلبت عليه الصبغة اللغوية . والرئيس أبو على ابن سينا الف رسالة فلسفية فى « العشق » وقد كان معاصراً لابن حزم ومات قبله بنحو ثمان وعشرين سنة . وكتب غيرهما من علماء اللغة فى معنى الحب والعشق والهيام وما اليها من الالفاظ التى تتضمن معنى الحب

على اننا حباً فى الانصاف يجب ان نقرر أن كل ماقيل فى معنى الحب قبل ابن حزم عدا رسالة « العشق » لابن سينا ، كان يتناول الناحية الادبية او الناحية اللغوية المحضة او العرض دون الجوهر والصفة دون الماهيـــة . ومن ذلك ما روى عن المأمون انه سأل يحيى بن اكثم عن العشق ما هو فقال : « هو سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه وتتأثر بهـــا نفسه » ، وكان ثمامة بن اشرس حاضراً فقال : « اسكت يا يحيى انما عليك ان تجيب فى مسألة طلاق او محرم صاد ظبيا او قتل نملة . فاما هذه فسائلنا نحن » فقال له المأمون : « قل يا ثمامة » فقال : « العشق جليس ممتع واليف مؤنس . وصاحب ملك . مسالكه لطيفة . ومذاهبه غامضة . واحكامه جائرة . ملك الابدان وارواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، وأعطى عنان طاعتها وقياد تصرفها . توارى عن الابصار مدخله . وعمى فى القلوب مسلكه » فقال المأمون : « احسنت والله يا ثمامة » وامر له بالف دينار

فانت ترى ان ثمامة — على الرغم من استحسان المأمون لما قاله — لم يأت بشىء من معنى الحب وتحديد ماهيته . ولو انصف المأمون لاعطى الف الدينار ليحيى بن اكثم لانه فى الحقيقة حام حول معنى الحب دون ثمامة الذى لم يتعرض لشىء غير بعض أوصافه وأعراضه

أما ماسوى ذلك مما كتبه ابن حزم وابن سينا ومن نحا نحوهم من علماء العرب بعدهم ، فقد تناول

أصحابه طريقة اليونان فى البحث عن ماهية الحب ونواحيه الاخرى . ولكنهم توسعوا فيه توسعا كبيراً ووصلوا بفصوله وابوابه الى الثلاثين أو ما يقرب من الثلاثين ،وساعدهم فى ذلك كثرة ما خلفه العرب من اخبار المحبين والآثار الادبية التى تتعلق بالحب

واشهر من الف فى هذا الموضوع بعد ابن حزم وابن سينا : ابن قيم الجوزية صاحب كتاب « روضة المحبين » وابو محمد بن السراج صاحب « مصارع العشاق » والتيمى مؤلف « امتزاج الارواح » والقاضى ابن سليمان النوقاتى مؤلف كتاب « محنة الظرفاء » وشهاب الدين ابن ابى حجلة مؤلف « ديوان الصبابة » . وهؤلاء عدا من ألفوا فى الحب الصوفى وفلسفته كابن العربى وابن الفارض وغيرهما

كلمة عن « رسالة العشق » و « روضة المحبين »

اسلفنا الكلام بالاجمال عن كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم . وهو أهم كتاب وضع بالعربية فى فلسفة الحب . ولا بد لنا ان نقول كلمة عن « رسالة العشق » لابن سينا وكتاب « روضة المحبين » لابن قيم الجوزية المتوفى بعد ابن سينا وابن حزم بنحو ثلاثة قرون . فهما على التحقيق احسن كتب وضعت فى هذا الموضوع بعد كتاب « طوق الحمامة »

و « رسالة العشق » رسالة صغيرة الحجم لا تتجاوز عشر ورقات تكلم فيها ابن سينا عن العشق بالمعنى العام وهو الجاذبية والانجذاب . وذكر انه يسرى فى جميع الموجودات حتى الجواهر البسيطة غير الحية . وبرهن على انه موجود فى الفلكيات والعنصريات والمواليد الثلاث . وهى (المعدنيات والنباتيات والحيوانيات) . وتكلم عن عشق الظرفاء والفتيان للاوجه الحسان . ثم تكلم عن الحب الالهى فى بحوث فلسفية عميقة

أما كتاب « روضة المحبين » فهو يقرب من كتاب « طوق الحمامة » وقد نهج نهجه فى بعض الابواب واقتبس منه وذكره فى غير موضع واحد . الا انه اوسع مادة . وقد انتحى الناحية الدينية فى كثير من المواضع . واستشهد بعدة آيات واحاديث . وانفرد ببعض البحوث الفلسفية كبحثه عن الحب (هل هو اضطرارى او اختيارى ؟) وبحثه عن لذة الحب وانها تابعة له فى الكمال والنقصان كما انفرد بالبحث اللغوى فى اسماء المحبة (وهى خمسون اسما) ونسبة بعض هذه الاسماء الى بعض . « وان العالم العلوى والسفلى انما وجدا بالمحبة » . وفى هذا البحث يقرب من ابن سينا . بل هو ينقل كلام ابن سينا فى رسالته مع شىء من الشرح والايضاح وايراد بعض الآيات والاحاديث

ماهية الحب

اختلف فلاسفة العرب وعلماؤهم فى تعريف الحب وبيان ماهيته بالمعنى الروحى لا الحيوانى . وقبلهم اختلف علماء اليونان واضطربوا فى تحديده . وقد غمض على بعضهم حتى عرفوه بأنه مرض وسواسى يشبه الماليخوليا ، يجلبه المرء الى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور

والتماثيل . وقال بعض الفلاسفة : « العشق طمع يتولد فى القلب ويتحرك وينمو ثم يتربى ويجتمع اليه مواد من الحرص ، وكلما قوى ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج والتمادى فى الطمع والحرص على الطلب ، حتى يؤديه الى الغم والقلق ، ويكون احتراق الدم عند ذلك باستحالته الى السوداء والتهاب الصفراء وانقلابها اليها . ومن غلبته السوداء يحصل له فساد الفكر ، ومع فساد الفكر يكون زوال العقل ورجاء ما لا يكون وتمنى مالا يتم ، حتى يؤدى الى الجنون . وحينئذ ربما قتل العاشق نفسه أو ربما مات غما ، وربما نظر الى معشوقه فمات فرحاً أو شهق شهقة فتختنق روحه أو تنفس الصعداء ففاضت نفسه . وتراه اذا ذكر له من يهواه هرب دمه واستحال لونه »

وعرفه ارسطو وأتباعه بانه اتفاق أخلاق وتشاكل صفات وشوق كل نفس الى مشاكلها ومجانسها فى الخلقة القديمة قبل هبوطها الى الاجساد

وذهب ابن حزم الى أنه استحسان روحانى وامتزاج نفسانى بين اجزاء النفوس فى أصل عنصرها الرفيع . وليست علته حسن الصورة الجسدية ، وإلا لوجب ألا يحب إلا جميل الصورة ، مع اننا نجد كثيرين يؤثرون قبيح الصورة ولا يجدون محيداً لقلوبهم عن حبه ، كما أن التجانس فى أصل الطباع وائتلاف الارواح هما داعية الحب . ثم يقول ابن حزم ماخلاصته : فان قال قائل لو كان هـذا كذلك (أى امتزاج نفسانى وائتلاف روحانى) لكانت المحبة بين المحب والمحبوب مستوية إذ الجزآن مشتركان فى الاتصال ! فالجواب عن ذلك أن نقول هذه لعمرى معارضة صحيحة ولكن نفس الذى لا يحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الشواغل الجسمانية والطبائع الارضية ، فلو تخلصت من هذه الشواغل لاستوى المحب والمحبوب فى المحبة . وكلما كثر التشابه زادت المودة وتأكدت ، فانظر هذا تره عياناً وقول رسول الله (ص) يؤكده : « الارواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . وقول أحد الصالحين : « أرواح المؤمنين تتعارف » ولهذا ما اغتم حين وصف له رجل من أهل النقصان كان يحبه ، فقال : « ما أحبنى إلا وقدوافقته فى بعض اخلاقه »

وروى عن افلاطون ان بعض الملوك سجنه ظلما . فلم يزل يحتج عن نفسه حتى اظهر براءته وعلم الملك انه له ظالم . فقال له وزيره : « أيها الملك قد استبان لك ان افلاطون برىء فما لك وله ؟ » فقال الملك : « لعمرى مالى اليه سبيل غير انى أجد لنفسى استثقالا لا أدرى ماهو » فأدى الوزير ذلك الى افلاطون . قال افلاطون : « فاحتجت أن افتش فى نفسى واخلاقى عن شىء اقابل به نفسه واخلاقه مما يشبهها فنظرت فى اخلاقه فاذا هو محب للعدل كاره للظلم فميزت هذا الطبع فى فما هو إلا أن حركت هذه الموافقة نفسه ، فأمر باطلاقى . وقال لوزيره : « قد انحل كل ما أجد فى نفسى له » . وذلك يؤيد أن التجانس فى أصل الطباع يؤدى الى المحبة . والى هنا نختم هذا الفصل الذى يعطى القارىء فكرة عامة عن هذا الموضوع . وخير لمن يريد التوسع فيه ان يرجع الى مصادره التى وصفناها . فسيجد مايقنعه بأن اسلافنا لم يألوا جهداً فى تناول كل مفيد طريف

روح فياض (١)

بقلم الاستاذ امين تقي الدين

...يا روحَ «فيّاض» أطلّي ساعةً أستوحِ منك لساعة موضوعا
فيم الإقامةُ في الجسوم كأنها صورٌ على لوحٍ تمرُّ سريعا
لما نخذتِ من الضيا لكِ هيكلاً أنى تركتِ الهيكلَ المخلوعا
صاحبتهِ خمسين ملء إهابهِ فنزلتِ رحباً وارتعيت مريعا
وطواكِ في صدرٍ نشرت به المنى شتى المعاني غاية ونُزوعا
تثبينَ من عينيهِ سحراً رائعا في كل جارحةٍ جرى ينبوعا
وملكت شيمة قلبه فتدافعت فيه المروءة مبدأً وصنيعا
وجريتِ فوق لسانه فبيانه آيٌ تنث وشاردات توعى
وأويت مسمعهُ فكنت سياجهُ من كلِّ نافرةٍ تسوء سميعا
وعهدتهِ يزهى ويمرحُ عابثاً أو يستكنُّ تواضعاً وقنوعا
يهب الجزيل ويستنيم الى المنى ويعفُّ ذا عوزٍ ويخشى الجوعا
وعلى غرارك قد طبعتِ شعورَه فخلقت منه الشاعرَ المطبوعا
ما كنتِ إلا شمسه ياليتهُ جارى بآيته النبي يسوعا

* * *

«فياض» هذى نفثة لو لم ترِدْ شعراً لسالت أدمعاً ونجيعا
إن الاديب إذا وقفتَ بقبره أمطرتهُ مما بكيت ربيعا
إنا لفي بلدٍ أفاد نفوسنا أدبا ليوقدهنَّ فيهِ شموعا
فإذا زهونَ حرمن مقعد شمعة وإذا انطفأن فقد نسين جميعا
لم يبق لي إلا البيان فهاكهُ وكفى البيان لدى الاديبِ شفيعا

(١) من قصيدة في تأبين الاديب الشاعر المرحوم الياس فياض

أحزان الانسانية

فى مستشفى المجاذيب بالعباسية

بقلم الاستاذ احمد الصاوى محمد

أراها من أحزان الانسانية وأذهب اليها كأنى ذاهب الى صلاة تقام على روح صديق راحل حتى اذا جئتها لم أجد دمعة حرى ، ولم أجد الا ابتسامة على الشفاه ، وضحكة تملأ الأفواه !

عجيب ! . . يرى شكسبير أن الذى يسرق منه شيء لم يشعر بفقده فكأنه لم يسرق منه شيء البتة . . فهل هؤلاء الذين سلبت منهم عقولهم هكذا ؟ لا ريب ! . . . . وإلا كيف هم فى هذا الجذل كله ؟ ومع ذلك فان بعضهم ثائر ! وإن بعضهم موتور ! . . وإن بعضهم يطلب الخروج ويلح فيه ويكتب له العرائض ! . . ويطلبه البعض أحياناً فى رفق وحياء . ويطلبه الآخرون فى خشونة ووقاحة وسباب . فهى حالات تتعاقب

وعندما جئت الدار وقت الظهيرة تفضل مديرها الدكتور محمد فؤاد بك بمصاحبتى ساعتين طويلتين . . وأحسبنا دخلنا وخرجنا من مائة باب ، جميعها تفتح لنا ثم تقفل من ورائنا . وهذه الدار مناطق . ولكل منطقة رجالها أو نساؤها من النزلاء

سبحان الله ! لم أشعر بأن هؤلاء مرضى كغيرهم سواء بسواء . لأن المريض برجله أو ضرسه أو ظهره ليس كمسلوب العقل والرشاد . ليس كمحروم النور الذى نرى به الأشياء ونفهمها ونمجد منها ما يستحق التمجيد ونحذر مافيه ضررنا ونتجنب الوقوع فى الزلل ونحسب حساب الحاضر والمستقبل معاً

إن هؤلاء المرضى أناس مثلنا ومع ذلك لم يعودوا منا . لأن لهم دولتهم القائمة برأسها التى لم تعد أرضية ولا سماوية . هى شيء بين بين . ألم تقل لنا تلك السيدة التى تمشط شعرها فى الشمس وهى تتكلم الفرنسية والانكليزية : « أفلا تسمعون تلك الاصوات المنبعثة من هذه السموات ؟ ! » فقلنا لها : « أجل ! . . . » إى وربى ! . . ليت هذه السموات تسمع أصواتنا نحن المنبعثة من أعماق قلوبنا بالدعاء لك أيتها السيدة المنكودة بالشفاء ! . . .

وهى تعود فتسألنى بالانكليزية : « أين الناس الأشرار ؟ » فقلت لها : « الله يصرفهم ! . . »

ودخلنا البهو الخاص بالنساء . وهو حسن الأثاث . وفيه بيانو وفيه الصحف اليومية

والمصورة . فاستقبلتنا سيدة من نزيلات الدار منذ عشرين عاماً . . تطوى الغسيل وترتبه بشكل لا يدع سبيلا الى الشك فى عقلهـــا . وكان فى يدى ورق أدون به بعض الملحوظات . فبادرتنا بقولها : « أهلا بكم فقد أتيتم تكتبون محضر الخروج . واخوتى واخواتى وابن خالتى سيأتون اليوم لهذا الغرض ويأخذونى »

ونحن نغادرها . نراها اليوم للمرة الأولى والأخيرة . لن نأخذها معنا ولن تخرج على يدينا وليس أهلها آتين اليوم لهذا الغرض ولا غداً . وسيطول بقاؤها هنا بقدر تعلقها بالحياة

وهذه المرأة العربية . التى كانت يوماً ما مليحة . وربما قيل فى حبها شعر ونثر . ها هى الآن بعيدة بعداً شاسعاً عن عالم الحب والشعر والاماني . وهى مع ذلك قريرة العين راضية بما قسم الله لها : « البركة فيكم . . بزيادة . . مادامت طرابيشكم فى الدنيا . . احنا مبسوطين »

والله ياخالة ليست بالطرابيش تقدر الرجال . . . ولكن الحمد لله على حسن ظنك . . .

تلك المرأة العربية راضية بما كتب لها . وهذه الجارية ساخطة تنذر بالويل والثبور . وكانت تغسل . . . والعمل كالغسيل أو الخياطة أو ترتيب الفراش من العلاجات النفسانية المفيدة فى هذه الحالات . . . فما رأتنا هذه « الدادة » وسمعت ملحوظة من الدكتور فؤاد بك عن الغسيل حتى ثارت : « معلهش . . . انا الجارية الزربوتة أم ديل . . . أوريكم ياباشاوات مصر »

ولما كنا لحسن الحظ لسنا من باشوات مصر فقد كان التهديد موجها لسوانا . وها نحن قد أبلغنا انذارها للذين يحملون هذه الرتبة الرفيعة . . . ولا أحسب أن فيهم من تحدثه نفسه بزيارة هذا المستشفى . . فعند ما يصير الانسان باشا أحسبه ينسى أحزان الانسانية

وهذه تزغرد ، وأخرى تعدد . النساء هن هن فى كل مكان . . . أصوات مرتفعة وانفعال شديد . . . بسبب وبلا سبب . . . ولا مؤاخذة

وأنت ياجدة . . . من أين أنت ؟ أحسبك شركسية . فما أشد بياض بشرتك حتى كأنها اللبن . . م بقيت هنا ؟ . . يالله ! . ٢٧ عاماً ؟ . . وارحمتاه لك . . سلخت ربع قرن وأنت تحزنين الربع الثانى ؟ . فى هذه الدار ؟ . فى هذه القاعة ؟ . . لا تحيلين عنها الا اليها ؟ . الله معك يا جدة . . . انى أفهم شكواك : « الى جناب المدير . . أطلب الانتقال الى القسم الثانى لانه انظف وغذاؤه أحسن . . ولا بأس بأن تدفع فرق السعر شيكا على البنك من مالى الخاص »

وهو كذلك . . . لقد طيب خاطرك لأنه أطيب الرجال . . .

هذا بقية عنبر النساء . ونحن فى ساعة الغداء . وهن يأكلن بسكون أشد من سكون تلاميذ رياض الأطفال . . ما أشد اختلاف ملابسهن وهيأتهن ! . . ترى . . هل يتذوقن هذا الطعام أو هل يجدن له طعما ؟ ؟ كم من مرة أكلن مع أولادهن وأزواجهن وأحبابهن ؟ ؟ أما اليوم فيأكلن وحدهن أو يأكلن مع الف شخص يلعب برءوسهن ويأخذ اللقمة من أفواههن . . من

يدرى . . . انهن اجتمعن من أقصى البلاد الى أقصاها ليتناولن هذا المزيج من الطبيخ واللحم والأرز فى صحن واحد أو صحنين من الالومنيوم ؟ يجلسن الى هذه الطاولة من الخشب ويقمن عنها دون أن تكون لهن ارادة واضحة أو رغبة ظاهرة . رباه من ظلم الأيام . . ان تلك الابقار التى نراها تعود فى المساء من المراعى والحقول لتدخل الدار فتجد علفها بانتظارها ، كانت تخور من أول الحى بالتحية ومظاهر الابتهاج . . أما هنا فدمى ميكانيكية أو أحجار شطرنج تنقل كما يقضى النظام ويأمر . . .

وهناك . . أصوات . . « يا الله يافاطمة . . تعالى نشوف عريسك . . . »

أين هو عريس فاطمة ؟ ؟ وكيف هو ؟ ؟ من سكان هذه الدار أو من قرية فاطمة أو منا نحن ؟ ؟

لعلهم سيزفون فاطمة قبل غروب الشمس . . . فقد كانت أترابها فى عجلة يردن النداء ويحثثن الخطى

وهؤلاء اللواتى يردن الدخول الى حظيرتهن فيفتح لهن فؤادبك بمفتاحه : « تفتح لنا ياجناب المدير ؟ . . . وهل نحن قدر هذا المقام ؟ . ربنا يخليك . . وتعمل طيب اكتر لو سمحت لنا بالخروج . . »

كل فرد هنا فى حالة التمنى والابتهال . . ولكن أهذا وقف على هذه الدار ؟ ؟ السنا نحن اكثر أمانى وأوسع مطامع من هؤلاء الذين كل مطمعهم الخروج والانطلاق من أسر هذا المرض العصبى الفظيع ؟ اليسوا هم أحق منا بتحقيق أمانيهم ليتحرروا من عبودية هذا السجن الذى ضربه الله عليهم فعزلهم عن سائر البشر وجعلهم لا من الانسان ولا من الحيوان ؟ ؟

أجل . . . ليتهم ياخذون من امانينا لمن هم أولى الناس باجابة الدعاء . . . أما نحن فماذا يجرى علينا لو وقفت الاستجابة لنا مؤقتاً ؟ ؟ يطول مرضنا بضعة اسابيع او تتعطل درجتنا بضعة شهور ، أو لا تربح ورقة اليانصيب قبل العيد ، او لايتم بناء بيتنا هذا العام او رزقنا الله ببنت بدل غلام ؟ ؟ نعم . . ماذا يضرنا من ذلك لو عرفنا أن جانباً من عذاب الانسانية سيرفع عن اخوان لنا فى هذه الانسانية عانوا كثيرا لغير ذنب جنوه ؟ ؟

قصيدة أبي الهول

للأستاذ محمد الهراوى

جمع البأس فى همامـــة نفس ... جسم ليث يقل هامة انسى
جاثم فى مكانه غير جاث ... ليس يحثو سوى الذليل الاخس
ملك فى العراء من غـــير تاج ... مستفيض الجلال من غير لبس
تتهاوى العروش وهو مكين ... فوق عرش موطـد فوق أس
مرت الاعصر الخوالى عليـــه ... وتمر العصور وهو ابن أمس
نهضت كفها الحوادث منـه ... وانثنت عنه بعد عجز ويأس
صنع قومى وهل بفاخر الا ... وارث المجد أو عصامى نفس ؟
أخرجته الاكف آية صنع ... يوم لا صنع غير صخر وفأس
تركته على الخلود دليلا ... للذى يطلب الدليل بلمس
قام عند الاهرام حارس مجد ... لن يطوف البلى عليه بطمس
رافع الرأس تحت شبـــه مجن ... باسط الكف فى براثن طلس
شاخص للزمان منه بعين ... لم تذق فى حياتها طعم نعس
قامـــة تقصر النواظر عنها ... ودعام يزرى برضوى وجلس
أمم الارض قد توالت عليـه ... وتولت من كل دين وجنس
أقبلت فى مدارع البغى صبحاً ... ثم دالت والبغى مغرب شمس
طمحت تستقل بالنيل ملكاً ... فاحتواها من دونه بطن رمس
تترى خلفـــه مصارع قوم ... هبطوا مصر فى مواكب عرس
يا محط الرحال كم من وفود ... حملتها اليك أحداج عبس
من بنى العرب والبنود شكول ... أو بنى الفرس تحت ظل الدرفس
أو بنى الترك فى جنود سلم ... أو رجالات بونبرت الفرنسى
كل وفد علت منـه مناه ... فى تتاج أو فى اشارات خرس
طال منهم لديك اطراق سماه ... سابح الفكر فى خيال وهجس
ساورتهم منى فتسخر منهم ... بابتسام عليه صبغة ورس

يا وفود الآفاق ماذا لديكم ... من أمانى ذات دلس وولس
فاهبطوا مصر مكرمين ضيوفا ... لا غزاة على كتائب حمس
واطلبوا الخير وافراً بأياد ... واطلبوا الناس بالولاء الأمس
يا أبا الهول أنت جلس الليالى ... منذ كانت وما سواك بجلس
قل لذى القوة الغشوم رويداً ... كل ما فى يديك منحة خلس
سيرد الزمان ما كان أعطى ... منح الدهر رهن رد وحبس
رب عار فى يومه عن ثياب ... كان بالامس رافلا فى الدمقس
يا خطيب الزمان لم تألُ جهداً ... ان تصون الزمان من كل دلس
قمت فى الناس قبل بعث نبى ... يعظ الناس فى أذان ونقس
انت وحى السلام تخطب فى النـــاس وهم عنه فى طعان ودعس
شهد الله ليس فى الناس رأس ... يصلح الناس من خبال ومس
ضاع فيهم كتاب كل نبى ... وهدايات كل شيخ وقس
فرقتهم مطامع وأمان ... فى صفات من الطبائع شكس
لو تطيق الكلام كنت خطيباً ... فوق سحبان فى البيان وقس
مبلغ الظن ان صمتك يأس ... بعدما جج كل صوت وجرس
أرسل النفس فى خبايا أبى الهو ... ل تذكرك والحوادث تنسى
إيه يا نفس ههنا السر خاف ... فتقريه بالبنان الخمس
وأبينيه فالحديث رجوم ... عنه والناس بين ظن وحدس
قد أرى فيه والفؤاد دليلى ... شبه دنيا تعيد فيه وترسى
صور للعصور مختلفات ... ماثلات على ترائب ملس
صورت فى فؤاده مقلتاه ... ما رآه فى كل جيل وحرس
مثلما صور الرسوم طباقا ... فوق ألواحه الزجاج الشمسى
فترى فيه للحوادث مرآة ... تريك العصور معنى لحس
يا أبا الهول والمسمى عظيم ... لا تشاب الاسماء فيك بلبس
أنت للظالمين طالع نحس ... وعلى مصر طالع غير نحس
ما حسبنا الاهرام غير عرين ... قمت عن أهله بحرس وعس
اودع الله بين جنبيك سراً ... قد عرفناه باختبار ومرس

كل دار أقمت فى جانبيها أبد الدهر لا تحول بدرس
صورت فيك لابن مصر معان حار فيها الورى على طول درس
علم قائم على ذروة المجـــد وطود على المفاخر راس
شامخ الرأس غير افطس أنف عن رءوس شوامخ غير فطس
جمع الحكمتين بأساً وعلماً فى حمى اروعين جسم ورأس
صابر للزمان طرداً وعكساً لم يحل فيه بين طرد وعكس
مستلينا على كرامة نفس مستحيلا مع الخطوب ليبس
سلس الخلق فى المكارم لكن ذو صفات على المكاره شمس
يقظ العين حين ظنوا فقالوا هو فى النوم غاطس أى غطس
يا تراث الآباء قد شد ما ها ج حديث الآباء منك بهمس
فيك من سرهم أشعة نور كل جيل يعود منها بقبس
فيك بعض العزاء ان ذكر المجـــد قديما وفيك بعض التأسى
لا تلم أمة أكف العوادى جردتها من كل حول وبأس
لم يقصر بنو الكرام ولكن لليالى أدوار نعمى وبؤس
كذب الزاعمون انا أناس الفوا الغبن واستناموا لوكس
وارتضوا خطة الهوان وساروا من وراء الشعوب ذيلا لرأس
لا وعى مسمع الزمان حديثاً مثل هذا ولا حوى صدر طرس
غضب الحق ان يقال بنو مصـــر سوام تباع بيعة بخس
نحن نسل الملوك من آل فرعـــون ونسل الاشراف من عبد شمس
فاسألوا الملكين من آل مصر مثل مينا وخفرع وكيوبس
كيف مدوا على الورى ظل حكم مستمد من فوق عرش وكرسى
نبىء الناس يا أبا الهول انا امة كالحديد صلب المجس
لم يعبنا انا بلتنا شعوب وبلونا الشعوب من كل جنس
كل من ساءنا أذقناه سوءاً بيد الله كل كأس بكأس
فاسألوا الروم ما دها الروم فينا واسألوا الفرس عن مصاب الفرس
امم تلك ذات ناب وضرس قد مضغنا ما بين ناب وضرس
فنيت كلها ونحن بقينا من حمى الله فى حظيرة قدس

عبد الرحمن الناصر

في يوم سمورة

بقلم الاستاذ حبيب جاماتي

أخذ كل من القواد والامراء مكانه حول عبد الرحمن الناصر وقد استوى فى مجلسه فى صدر القاعة ، وتطاولت الاعناق نحوه ، وشخصت الابصار اليه ، وكل من الحاضرين يسائل نفسه : « أى حادث جلل استدعى هذا الاجتماع ؟ »

القى عبد الرحمن نظرة على ابطاله ، وعندما أيقن انهم جميعاً قد لبوا دعوته ، وأسرعوا إلى مجلسه ، وجه اليهم الخطاب قائلا :

ـــ لقد دعوتكم يا رفاقى فى الجهاد وأعوانى فى تثبيت دعائم هذا الملك ، لكى أفضى اليكم بما عولت عليه وعزمت على القيام به نحو حصن من حصون الاعداء المنيعة ، وقلعة من قلاعهم المتمردة ، وأظنكم قد أدركتم أى حصن أعنى وأية قلعة أقصد . .

وسكت لحظة . فتبادل الامراء والقواد النظرات . ثم القى أحدهم ، فى وسط ذلك السكون هذه الكلمة : « سمورة ! »

فابتسم عبد الرحمن الناصر ، ورفع يده إلى لحيته ، وجعل يعبث بها باصابعه قائلا :

ـــ لقد أصبت ياهشام . إياها أعنى ! فقد استولى العرب على الاندلس من أدناه إلى أقصاه . وخضع لهم حكام المدن وغطارفة الجبال . وضربت الاتاوة على المقاطعات النائية . والبلاد تتمتع الآن بما تصبو اليه من راحة وهدوء وعزة واطمئنان . لكن شيئاً واحداً ينغص على الآن عيشى ويملأ ليالى بالاحلام المزعجة والافكار المقلقة . فان « سمورة » مدينة الجلالقة ومعقلهم الحصين لاتزال متمردة علينا ، رافعة لواء العصيان قائمة على جبلها الاشم ، تتحدى جيوشنا الجرارة ، وتردها عن أسوارها المنيعة خائبة خاسرة . فهل يجمل بعبد الرحمن الناصر أن يغض الطرف عما أصاب جيوش العرب من فشل واندحار ، أمام جبل سمورة ، وأن تردد الاجيال المقبلة أن ملوك الاندلس قد عجزوا عن استرداد هذه المدينة ، بعد أن طردهم منها الاسبان واعتصموا فيها مكابرين مفاخرين ؟ يا أمراء العرب وقواد الجيش لقد دعوتكم للاسترشاد برأيكم . فما قولكم فى إعادة الكرة ، ومهاجمة سمورة ، واقتحام أسوارها ، ودخولها عنوة ، أياً كانت خسائرنا وأياً كانت قوة المدافعين عنها ؟

تشاور الحاضرون فيما بينهم ، واستحسنوا رأى عبد الرحمن ، فنهض واحد منهم وهو أكبر الجميع سناً وقال :

ـــ ان رأينا هو رأيك يا أمير المؤمنين فان شوكة الجلالقة تزداد يوماً عن يوم . وينبغى لنا أن نقضى عليهم وأن نتدارك الخطر ونضربهم الضربة القاضية ، قبل أن يستفحل أمرهم ويتعاظم شرهم . فاذا شاءت ارادة أمير المؤمنين سرنا غداً بمائة الف من رجالنا البواسل لفتح سمورة ونصب أعلامنا فيها !

فطفح وجه عبد الرحمن الناصر بشراً وقال :

ـــ لا عدمتكم أنصاراً . اعدوا اذن للملحمة القادمة عدتها ، وموعدنا فى مثل هذا اليوم من الاسبوع المقبل !

☆ ☆ ☆

بعد أن تدفقت جيوش العرب على الأندلس ودكت حصونها ، واجتاحت مدنها ، ومزقت كتائب المدافعين عنها ، ظل ثلاثون من صناديد الحرب ، معتصمين فى « أعالى الجبال » فى مكان اطلقوا عليه اسم « الصخرة » يقتاتون من العسل وجذور الاشجار ، ويأبون الاستسلام للغزاة الفاتحين . . .

قابل العرب عصيانهم بالاحتقار . فتركوهم وشأنهم ، وما كانوا ليظنوا فى ذلك الوقت ان اولئك الابطال الثلاثين ، سوف تتكون منهم نواة جيش عظيم ، يعيد على العرب الكرة بعد الكرة ، ويسترجع منهم المواقع الحربية موقعاً بعد موقع !

أصبحت تلك « الصخرة » وكر القومية الاسبانية ، وبركان الوطنية المتأجج ، وخرج أولئك الثلاثون من مكمنهم فانضمت اليهم فلول الجلالقة المبعثرة ، وجعلوا يهاجمون الحصون والقلاع والمدن ، وتمكنوا فى سنة ١٣١ هجرية الموافقة لسنة ٧٤٨ للميلاد ، بقيادة ملكهم « الاذفونش » الكاثوليكى من استرجاع سمورة وقلعتها من العرب ، واحتفظوا بها منذ ذلك الوقت ، وعبثاً حاول العرب اخراج المعتصمين فيها ، فقد تحطمت هجماتهم على أسوارها كما تتحطم الامواج على الصخور ، وظلت المدينة الحصينة تسخر طوال تلك السنين من الجحافل المسيرة لاخضاعها . وظلت قلعتها الشامخة رابضة فوق جبلها الشامخ . كأنها وكر من وكور النسور ، يهزأ باسراب الزرازير !

وعندما تولى عبد الرحمن الناصر خرج عليه أعمامه ومعهم فريق من كبار الزعماء والقواد والأمراء . فاضطر الخليفة الاموى إلى ترك الجلالقة وشأنهم للقضاء على اعدائه فى الداخل والتخلص ممن كانوا ينازعونه الملك والسلطان . فاشتد ساعد أعدائه وانضم اليهم بعض الخوارج من العرب كاسحق بن أمية وغيره ، فجعلوا يكشفون لهم عن عورات المسلمين ويساعدونهم على النيل منهم ؟

لكن عبد الرحمن الناصر تغلب على اعمامه وأنصارهم . فاستتب له الأمر . وعاهد نفسه على بسط سلطان العرب من جديد على البقاع والامصار التى أضاعها عليه انهماكه فى الشؤون الداخلية

والحروب الاهلية . وأول ما فكر فيه وعزم عليه انتزاع سمورة الحصينة من الجلالقة المتمردين وبذل قواه فى هذا السبيل

☆ ☆ ☆

استيقظ أهل سمورة مذعورين . ونهضوا خائفين على أصوات الاجراس والنواقيس وهى تدق بالتواتر إيقاظاً للناس منذرة بالخطر القريب والويل الداهم

وانقض الخبر من فوق أبراج الكنائس والحصون على السكان انقضاض الصاعقة . وقدأرسله الحراس من مكامنهم فى جهات المدينة الاربع : « العدو ! العدو ! »

وبدت رايات العرب وأعلامهم فى السهول والوديان . وقد انتشروا فيها على مسافات شاسعة . وطلعت الشمس من وراء القمم والآكام . فسطعت تحت أشعتها السيوف والدروع والرماح . وهب نسيم الصباح فحمل الى المدينة مع أريج الحقول والغابات صهيل الخيول وجلبة الجنود !

وأيقن القوم أن ذلك اليوم سيكون من الايام الدموية الهائلة وأن مستقبل مدينتهم سيطرح فى حلبة الرهان ! فاستعدوا للمقاومة . . . واستعد العرب للهجوم . . .

وكان القواد يسيرون فى طليعة جيشهم ، ومن ورائهم مائة الف من أبطال الحرب المغاوير ، بين مخترط سيفه ، وشارع سنانه ، وقد اختارهم عبد الرحمن وأعد كتائبهم لانه كان يعلم أن فى سمورة رجالا أعزة النفوس عركتهم الحوادث ودربتهم الحروب ، وأنه لن ينال منهم منالا ولن يتمكن من إخضاعهم إلا إذا نازلهم بخيرة جنوده وصفوة قواده ، عملا بالقول الحكيم : « لا يفل الحديد غير الحديد ، ولا يغالب الصنديد غير الصنديد ! »

والتحم الفريقان فى معركة دامت طول ذلك النهار ، بيعت فيها الارواح رخيصة ، وسالت فيها الدماء جداول ، وطوحت الطوائح بسمورة المنيعة فدخلها العرب فاتحين منصورين !

لكنهم أهملوا الحصون كعادتهم ، وانتشروا فى المدينة مهللين مكبرين ، ولم يعملوا على تأمين أنفسهم بالاستيلاء على القلاع والآجام جميعها ، عملا بقولهم المأثور : « كل محصور مأخوذ ! » فاعتصم المقاتلون من الجلالقة وراء تلك الجدران المنيعة ، واجتمع زعماؤهم للتشاور والمداولة

وكان ساعدهم الايمن ومرشدهم المسموع الكلمة ، فى ذلك الظرف العصيب ، قائداً من أشهر قواد العرب الخارجين على عبد الرحمن ، وهو اسحق بن أمية ، الشجاع المحنك !

رسم ذلك العربى المحارب فى صفوف أعداء أمته خطة لانقاذ سمورة من الفاتحين وطرحها على بساط البحث أمام زعماء المدينة المقهورة فاقروها جميعاً ، وعزموا على وضعها موضع التنفيذ عند ما يرخى الليل سدوله على الاسوار . . وفى الساعة المعينة ، انقض الجلالقة من جديد على العرب الذين أهملوا وسائل الحيطة بعد النصر . فاخذوا على غرة منهم . ولم يقووا على صد المهاجمين ، فتراجعوا أفواجاً أفواجاً ، مسرعين إلى الخندق المحيط بالمدينة لاجتيازه والعودة إلى السهول ، فتمكن خمسون

الفا من عبور القنطرة القائمة عليه وسقط خمسون الفاً منهم صرعى فى حومة القتال !

وأراد الجلالقة أن يعبروا الخندق وراء الهاربين ، للقضاء عليهم . فاعترضهم اسحق بن أمية — وقد هاله ما أصيب به العرب من خسائر جسام وآخذ نفسه على ما بدر منه — صائحا بهم :

— إيا كم أن تلحقوا بهم ! فان العرب لم يعبروا الخندق ويسرعوا الى السهل إلا لكى يقيموا فيه كمينا لاستدراجكم ! إننى أعرف منكم بعاداتهم وتقاليدهم . فارجعوا الى المدينة واكتفوا بما أحرزتم اليوم من نصر عظيم !

☆ ☆ ☆

أدخل ذلك الانهزام الشنيع الحزن إلى قلب عبد الرحمن الناصر . وظل منذ ذلك اليوم المشئوم يفكر فى أخذ الثأر ، لانه كان يأبى أن يسجل على نفسه العجز الذى سجله أسلافه على أنفسهم ، وأن يوصم بما وصموا به ، وأن يطوى الصفحة المجيدة التى دونها فى تاريخ العرب والاندلس ، دون أن يغسل ذلك العار الذى لحق جيشه فى سمورة ، ويمحو أثره بانتصار باهر وفتح مبين

وكأن الاقدار شاءت أن يكون عونه فى أخذ الثأر من أهل سمورة ذلك الرجل نفسه الذى كان من قبل عوناً لهم على صد العرب عن أسوارهم : اسحق بن أمية !

فقد عاد ذلك القائد المغوار الى حظيرة الواجب . بعد معركة سمورة بأيام معدودة وطلب العفو والامان ؟ وتقرب من الخليفة الذى عرف قدره وأحله فى حاشيته المحل اللائق به ، فاصبح اسحق ابن أمية ، بين مساء وصباح ، موضع ثقة عبد الرحمن وأمينه ونجيه

وكما رسم اسحق من قبل للجلالقة خطة الدفاع وطرد العرب من مدينتهم المجتاحة ، فانه رسم فيما بعد ، وبالاشتراك مع مولاه عبد الرحمن الناصر ، خطة هجوم جديد للاستيلاء على المدينة ودك أسوارها واقتحام حصونها

أدرك الخليفة أن وجوده لابد منه فى الميدان ، فعزم على قيادة جيشه بنفسه . وفى صبيحة يوم من أيام شوال سنة ٣٢٧ هجرية الموافقة لسنة ٩٣٨ للميلاد . وصل ذلك الجيش الى السهول الممتدة أمام سمورة . وانتشر فيها انتشار السحاب في السماء !

سار عبد الرحمن الى الجلالقة فى هذه المرة بمائتى الف مقاتل من بواسل الأبطال والفرسان ، ولم يأبه لتشاؤم المنجمين الذين قالوا له ان جيشه سينهزم لانه بلغ سمورة بعد كسوف الشمس بثلاثة أيام . بل أعد للهجوم عدته . ورتب للقتال جنوده . وما طلع فجر الغد الا وقد دكت الاسوار وأسلمت الحصون وسقطت الآجام وفتحت القلاع أبوابها . فدخل عبد الرحمن الناصر مدينة الجلالقة واحتاط لكل مفاجأة وانتقاض

☆ ☆ ☆

سكر العرب بخمرة النصر ، وراحوا ينزلون باولئك الاعداء الالداء أنواع الانتقام وقد عجز قوادهم عن كبح جماحهم بعد ذلك الفوز المبين !

ترك عبد الرحمن الناصر جنوده وشأنهم وقد أطلقوا لثوران غضبهم العنان ، وامتطى صهوة جواده . وانطلق ومعه بعض اتباعه متجولا فى ميدان القتال ، باحثا عن جريح يواسيه وحزين يعزيه وتائه يعيده الى أهله . . .

طرق أذنيه وهو مار تحت أسوار المدينة نحيب طفل يبكى . فانصت . ثم ترجل وقصد الى مبعث الصوت . واذا به أمام وليد لا يزال فى لفائفه مطروح بين الاعشاب فى اخدود ضيق تحت جدار متهدم . . .

فالتقطه عبد الرحمن واحتضنه وجعل يبذل له من تدليل ودهدهة ما يستطيع بذله رجل عرف كيف يحب رعيته وابناءه

فسكت الطفل وارتسمت على ثغره ابتسامة الاطمئنان . وركن الى ذلك الصدر القوى كما يركن العصفور الى عشه . فحمله عبد الرحمن الناصر على جواده ورد عليه طرف ردائه . واستمر فى جولاته فى السهول والهضاب . . .

ثم قصد قبل غروب الشمس الى مضرب فسيح نصب امام تلك القنطرة التى شهدت من قبل انهزام العرب وشهدت فى ذلك اليوم انتصارهم . وهناك جلس الخليفة يحيط به امراء جيشه فى ابهة المجد وعظمة الملك ، وأمر ان يؤتى اليه بأسلاب المعركة . فمر الجنود امام مولاهم وقائدهم يسوقون الاسرى افواجا افواجا والسبايا جماعات جماعات . وفجأة علا فى الخارج صراخ ونحيب وحدثت فى باب المضرب جلبة استرعت اهتمام عبد الرحمن وخاطب الحراس سائلا : « ما الخبر ؟ »

وقبل ان يلاقي سؤاله جوابا شقت صفوف الجنود امرأة فاقدة الصواب وقد حلت شعرها ومزقت ثوبها وأرسلت صوتها بالنواح والعويل ، فوقفت فى وسط المضرب صائحة :

ـــ أين هو ملك العرب ؟

احاط بها الحراس من كل جانب . لكن عبد الرحمن ردهم عنها قائلا :

ـــ دعوها ولا تزجروها . ! . هل بينكم من يعرف من امرها شيئا ؟

فقال احد الجنود :

ـــ رايناها منذ ساعات يا امير المؤمنين تروح وتجيء بين الجثث والاطلال ، تارة تركض كأن بها مساً من الجن وتارة تنكب على الارض تفحصها وعلى الاشلاء تقلبها ، ثم تنهض حائرة يائسة ، وتنقلب من جديد راكضة معولة . فجئنا بها اليك يامولاى مع من جئنا بهن من سبايا الحرب

فخاطب المرأة سائلا : أنا ملك العرب ! فمن أنت وما دهاك يا امرأة ؟

فنظرت اليه بعينين يتطاير منهما الشرر وينبعث منهما الحقد والغضب . وقالت :

ـــ أعد إلي ولدي ياقاتل النساء وذابح الأطفال ! أهذا هو العدل الذي تحمله الينا والأمان الذي تمدنا به ؟ . . ان جنودك يطلقون أيديهم في السلب والنهب ويشتتون في العراء من لا تتناوله سيوفهم من السكان . ويفصلون بين الأخ واخته والرجل وزوجته والأم وطفلها ! امن اجل هذه الأعمال يسمونك « الناصر » يا عبد الرحمن ! انعم به إذن من نصر وانعم به من لقب !

فتقطب الملك جبينه ونظر الى المدينة وقد اندلعت فيها النيران وارتفع منها الصياح . ثم نظر الى تلك المرأة المذعورة وخيل اليه ان الضمير قد تجسم فيها وجاء يؤنبه على الفظائع التي يرتكبها جنوده في مدينة ذنبها الوحيد أنها دافعت عن حريتها وابت الخنوع والاستسلام !

والتفت الى من كانوا يحيطون به من القواد وقال :

ـــ احملوا الى الجند أمري بالكف عن الارهاق واضربوا عنق كل معاند مخالف !

ثم خاطب المرأة السمورية بلهجة الرحيم الشفيق ، قائلا :

ـــ خففي عنك يا امرأة . انني اؤمن سكان هذه المدينة على ارواحهم وأموالهم فاطمئني

فقالت المرأة والزفرات تخنقها :

ـــ وولدي ؟ . طفلي الرضيع الذي انتزعه جنودك الاجلاف من بين ذراعي فانتزعوا معه روحي من بين جنبي ؟ اتعيده الي ياعبد الرحمن ؟ ام انك تحلل ما تحرمه الشرائع وترضى بأن يرتكب جنودك ما ينهى عنه المسيح وينهى عنه محمد ؟ اعد الي ولدي اذا كان في صدرك قلب يختلج بشعور الأب ويعرف حب الوالدين !

ـــ ان قلب عبد الرحمن يا امرأة ليس بالقلب المظلم الجوانب كما تظنين . . . وقد تكون العناية الالهية هي التي قادتك الآن الى . انظري ! ألا يكون هذا الطفل ولدك ؟

قال الخليفة هذا ، ورفع طرف ردائه عن الطفل الذي حمله معه الى ذلك المضرب ، والذي كان نائما مستكنا بجانبه ، ووضعه امام المرأة الحزينة

وكأن الرضيع أحس بأنه على مقربة من أمه ، فجعل يصرخ فرحاً مسروراً . .

فارسلت المرأة صيحة سرور وطرب واندفعت نحو الطفل تغمره بالقبلات وتغسله بالدموع ، ثم خرت على وجهها وسجدت شكراً . وقالت :

ـــ انك ايها الملك لأعلى الملوك نفساً وارحمهم قلباً وأكرمهم خلقا . فليرزقك الله عمراً طويل الآباد ، وليرع بعين عنايته أبنائك من بعدك وأحفادك من بعد أبنائك !

وكتب عبد الرحمن الناصر في وصيته أنه حكم الأندلس خمسين سنة ، منها أربعة عشر يوما يعدها « الايام السعيدة » في حياته الطويلة

وذكر أن أحد تلك « الايام السعيدة » هو ذلك اليوم المشهود ـــ « يوم سمورة » ـــ الذي هزم فيه الاعداء ، واستولى على تلك المدينة الحصينة ، وأعاد الى الأم السمورية الحزينة طفلها المفقود

ثروت باشا [1]
يعود الى أرض آبائه

بقلم الاستاذ خليل تابت

وفى مساء السبت أغارت على حمى الدنج تنازعنى فتصرعنى وأقارعها فتقرعنى وأجالدها كما يجالد العدو المرهوب الجانب حتى ضاق الصدر ووهن العظم ، فانطرحت كما ينطرح المجاهد وقد خارت قواه ولم يبق له من الحيل سوى بث الشكوى وترديد البلوى والتمسك بحبل النجوى . وما أضعف الانسان ! . وخيم الظلام على الوجود وطلع القمر من خلال سحب دقيقة يستشف بعض مافى هذا الكون من أسرار السعادة والهناء وأسباب الحزن والاسى والشقاء .فى تلك الساعة دخل الناعى يقول : «مات ثروت باشا» فغمغمت كمن يستوعب النبأ ،فاعاده على مسمعى وكنت قد صرت فى البرزخ بين اليقظة والمنام . فاذا بى فى غمرات من أحلام مزعجة وخواطر مفزعة ومناظر تنبو عنها العيون ، لا أخرج من غمرة حتى أخوض أخرى ولا أنجو من بلية حتى أبلى بشرمنها ، وبحاروأمواج وارتفاع وانحدار وضوضاء كضوضاء يوم الحشر ودوى كمن وضع فى أذنيه أنامله العشر ، ثم رأيت فيما رأيت جمعاً كثيراً واقفاً على شاطىء بحر لاأعرفه ورجالا يصعدون من البحر يحملون كنزاً نفيساً يحرصون عليه حرصاً عظيما فدفعوه إلى هؤلاء الواقفين فتسلموه واجمين وهم مقطبو الوجوه منقبضو الصدور، ثم رأيت ثروت باشا باسما كعادته وعيناه تحدقان فى الناس من وراء نظارتيه وقد انبسطت اسارير وجهه بالرزانة والسكينة اللتين اتصف بهما . وهنا أبدلت لوحة الرؤيا فتعاقبت المناظر وكلها شدائد لم أصدق ان طلع الفجر للخلاص من كابوسها . ثم أشرقت ذكاء وأفاضت أشعة النور والرجاء فحمدت الله على أن ما رأيت لم يكن سوى اضغاث أحلام ونسج مخيلة نسجته حمى الدنج ومزقته أنوار النهار. وبعد قليل جاءت الخادمة بصحف الصباح كالعادة فى أيام الاحد فوقع بصرى على خطوط سوداء ضخمة وقرأت من بعيد اسم ثروت باشا فى رأس تلك الخطوط ،فصفقت صفقة الاواه وقلت لاحول ولاقوة إلا بالله .لقد كان الامر حقاً ولم يكن حلماً فيالضيعة الذكاء ومواهب الرجال والحكمة وسداد الرأى ! ويا لمصاب مصر فى موت أبنائها الافذاذ . لكل نفس ذائقة الموت وكل ذى حياة شارب كاس المنون . ولكن هذا الموت جمرة تكوى نفوس الاحياء وجذوة توقد نار الاسى فى حنايا الضلوع

(١) مقتبس من مقال نشر بالمقطم

ومخادع الافئدة ،فلا تقوى الدموع على اطفائها الى أن يمن الله بالعزاء. وأى عزاء يلتمس فى مصاب قومى عظيم ؟ ومن يعزى المحزون اذا عم الحزن الجميع وكان الباكون جميع أفراد الشعب ؟ وأى السبيل الى دفع الالم . ألم ضربة فجائية انقضت من عالم الغيب على هامة أمة بأسرها لولا اليقين بالله والشعور الوطيد ؟ فان هذا الراحل الكريم فقيد البلاد كلها لم يمت بالانتقال من عالم الشقاء والفناء الى عالم الخلود والبقاء ، ما دامت مصابيح أعماله تبعث انوارها على ضفاف النيل شاهدة بخدماته الجليلة وأعماله العظيمة وما حباه الله من فضائل وسجايا وقفها على قومه وعشيرته جواداً غير مقتر ولا ضنين، فخلف لهم ارثا ثميناً وترك تركة عظيمة يتمتعون بها هم وأولادهم وأحفادهم من بعدهم إلى ما شاء الله ، وضرب للعاملين المثل الاعلى فى التفانى فى الخدمة الصحيحة والاقدام على جلائل الامور ومواصلة السعى للنفع والخير ، لا يلهيه لهو ولا يوهن عزيمته فشل ولا يثنيه عن قصده صعاب ولا عقبات

مات ثروت بعيداً عن وطنه الذى أحبه فخسرت مصر بموته ثروة عظيمة وشعرت فى الحال بعظم خسارتها ،وشاطرها هذا الشعور غيرها من الامم المتمدنة التى عرف اقطابها فقيد مصر الراحل فاكبروا فيه هذه المواهب التى تجلت من نعومة اظفاره ، فاحرز بها قصب السبق على الاقران فى مقاعد الدرس والتحصيل ، حتى اذا شب وبرز الى حلبة العمل تخاطفته المناصب متدرجة به صعوداً فى سلم الارتقاء والعلاء الى مقام الوزارة والزعامة السياسية . وكانما العناية أعدته بما خبر من شؤون الادارة والقضاء ومعالجة مشكلات الزمان والتمرس بحوادث الدهر لما كانت تضمره لمصر من طريق تنكب به عن حياة ماضية سئمتها الى حياة جديدة تصبو اليها ، وفيها مطلع عصر طافح بالامل والرجاء وعصور تليه ، ويكون فيها تحقيق الامانى واقامة صروح النهضة القومية على القواعد التى وضعها العاملون المخلصون الالباء ، وعاد ثروت الى أرض آبائه وأجداده ، فحملوه وهو المتصف بالتواضع وحب العزلة والسكينة . على الاعناق وساروا به فى هذه الشوارع التى عرفها والتى أحبها صبياً ويافعاً وشاباً وكهلا والتى سعى سعيه المشكور ليطلق فيها نسيم الحرية والاستقلال يملأ الصدور وتخفق به القلوب . ومشوا بثروت الهوينا فى وسط بحار الجماهير الزاخرة الآسفة الباكية وهى الجموع التى كان ثروت يسهر لتنام ويطلق الراحة فى النهار لتستريح

وحملوه تحت رايات مصر المنكسة حزناً عليه واعترافا له، وهى الرايات التى كان يطمع أن يراها تخفق الى جنب رايات الدول المستقلة حتى اكتحلت عيناه بهذه المنظر المشتهى فى غير موقف واحد وفى غير مكان واحد ، فاعتزت بمساعيه مصر ورفعت رأسها فى مجامع الشعوب تطلب النور الساطع والهواء الطلق ، كما ارتفعت بنودها وألويتها الخضراء منادية بأفصح لسان أن مصر عرفت كيف تضع أساس صرح مجدها واستقلالها وستعرف كيف تمضى فى البنيان.ومشى وراء نعشه عظماء مصر من أمراء البيت المالك ووزراء الدولة وسفراء الدول وجمع لايحصى من أقطاب الامة وكرامها وممثلى هيئاتها وطبقاتها وهم يرددون الحسرات ويصعدون الزفرات ويحصون ما حوى النعش من كريم السجايا وعظيم المزايا

ويمدون ما أصاب الكنانة بفقد من ادخرته الليال يفتقد فيها البدر وملمات يبحث فيها عن ذوى الرأى السديد . فاهتزت الكنانة بوفاته وارتجت أرجاؤها بنعيه ، وأقبل الذين تظلهم سماؤها يعربون عما تكنه النفوس من عواطف الاجلال والاحترام بما فى طاقة البشر من مجالى التكريم وعرفان الفضل والجميل لهذا الراحل الذى نقش اسمه على لوحة تاريخ مصر الحديث نقشا لا يمحوه تعاقب الايام وكانت فى كثير من الاحوال المحور الذى يدور عليه

كان الناس فى أمر ثروت رجلين : فرجل لا يعرفه ولا يخالطه فيبنى رأيه فيه وحكمه له أو عليه بما يسمع عنه وما يقال له ، ولكن هذا الفريق كان يدرك أن ثروت من رجال مصر الممدودين وانه رزق من الحنكة السياسية مالا يرزقه سوى قليل من الخلق . ورجل عرف هذا الوزير الكبير فى مواطن القضاء والادارة والسياسة فكان يكبر مافطر عليه من الذكاء واتقاد القريحة وسعة الحيلة فى معالجة الامور ورحابة الصدر فى تلقى الحوادث . غير أن هذا كله كان مسدولا عليه ستار من السكينة والدعة ورقة الخلق وشىء من حب العزلة ومقت الظهور مقرونة بحياء فى الطبع . وكانت هذه الاخلاق تتجلى فى مظاهر شتى كاحجامه عن الخطابة الا فى مواقف نادرة مع أنه كان منشئا بليغاً وخطيباً مجيداً . يذكر ذلك والعهد قريب الذين سمعوه يرثى سعدا والذين طالعوا هذا الرثاء فى الصحف فقد كانت خطبته هذه آية من آيات البلاغة وحسن الانسجام علاوة على ماوعت من سمو العواطف وصدق الوفاء . فهذا الميل الى العزلة ونفوره الفطرى من الكفاح والنضال كانا ينقصان من مقدرة ثروت على تقلد الزعامات مع توافر سائر أسباب النجاح فيها له . أما حنكته السياسية فقد صارت أشهر من نار على علم وحقيقة لا يختلف فيها اثنان بل صار اسمه عنوانا لها فلا يذكر الا مقرونا بها فى الاذهان . فان مساعيه التى انتهت باعلان استقلال مصر بعدما أصرت الحكومة البريطانية اصرارها المعروف على التمسك بنظام الحماية — ان هذه المساعى التى كللت بالنجاح بما عززت به من الحجج الدامغة والادلة الساطعة والبيانات المقنعة أكسبت ثروت شهرة ذاعت فى الخافقين وأحلته محلا رفيعا فى عيون أقطاب البريطانيين بدليل مالقى من حفاوتهم به واجلالهم له فى زيارتيه لبلادهم وعاصمتهم فى صيف ١٩٢٦ وصيف ١٩٢٧ . ولايتسع المجال هنا للبحث فيما اصبح من حقائق التاريخ الشهيرة . ولا بد أن ماسيظهر من الذى خفى حتى الساعة من تلك المساعى وما ذلل فيها من عقبات سيزيد فى شهرة ثروت ويقضى برفع مرتبته السياسية فى العيون ويضاعف حسن تقدير جهاده فى خدمة وطنه وقومه . أما مساعيه الاخيرة لعقد اتفاق بين مصر وبريطانيا فهذه لاتزال مذكورة بتفصيلها لقرب العهد بها وقد دافع فيها عن قضية مصر دفاعا محكما دل على صدق وطنيته وسعة خبرته وشدة ذكائه وبعد نظره وحمل اقطاب الحكومة البريطانية على التسليم بنظريات وقواعد ما كانوا يسلمون بها من قبل . واذا كان لم يفز بما اشتهى فلأن أوان الفوز للجانب المصرى لم يكن قد آن

الله والشاعر

من قصيدة للاستاذ علي محمود طه

من عبراتي صغتُ هذا المقالْ ... ومن لهيب الروح هذا القلم
ملأت منه صفحات الليال ... فضمنتْ كلَّ معاني الالم

يارب ما أشقيتني في الوجود ... إلاَّ بقلبي : ليته لم يكن !
في المثل الأعلى وحب الخلود ... حملته العبء الذي لم يهنْ

خلقته قلباً رقيق الشغاف ... يهيم بالنور ويهوى الجمالْ
حَلَتْ له النجوى ولذّ الطواف ... بكعبة الحسن ووادي الخيال

بعثتَه طيرا خفوق الجناحْ ... على جنانٍ ذات ظلٍ وماء
أطلقته فيها قبيل الصباحْ ... وقلت : غنِّ الارض لحن السماء

فهام في آفاقها الواسعه ... النور يهفو حوله والندى
مصفقاً للضحوة الساطعه ... ومنشداً ما شاء أن ينشدا

إن جاء صيف أو تجلى ربيعْ ... حيّاهُ منه عبقريُّ الغناء
وكم خريف في نشيد بديعْ ... تظل ترويه ليالي الشتاء

قيثارة تصدر في فنها ... عن عالم السحر ودنيا الخفاء
على الصدى الحائر من لحنها ... يستيقظ الفجر ويغفو المساء

مشت على الامواج انغامها ... والارض قيد النشوة المسكره
كأنما ترقص احلامها ... في ليلة شرقية مقمره

عزاؤها شعر به اهتز ... في نغم مستعذب ساحر
ما يحزن العالم أو يبهج ... إلا على قيثارة الشاعر

الطاووس

للدكتور زكي مبارك

الطاووس طائر ذو جناحين ، ولكنه لا يستطيع النهوض ، لان ريشه عبء ثقيل . وهو طائر ذو كرامة ينفر من الابتذال . وهو الطائر الوحيد الذى رأيته فى حديقة النباتات فى باريس يتعفف عن هدايا الزائرين . فقد تلقى اليه قطع الحلواء فيتعامى عنها فى أنفة وكبرياء

وريش الطاووس مشهور بالحسن . ويكاد صدره يفعل بالناظرين ما تفعل الصهباء بالالباب . وليس شىء يجل عن الوصف بقدر ما يجل صدر الطاووس . والناظر الذى الف ذوقه أن يقتات من الحسن لايدرى كيف يواجه تلك الفتنة العجيبة التى وهبها الله لذلك الطائر العزوف

ولقد طال ارتيادى لوادى الطير فى حديقة النباتات ، وكان الطاووس فى كل مرة هو أفتن ما أرى . ولكن كان يضايقنى منه شىء واحد : هو تعقله . والتعقل هو أشد مايؤذينا من أهل الجمال

غير أنى دهشت فى الزورة الاخيرة : فقد رأيت الطواويس كلها فى فرح يشبه الجنون لتوديع الشتاء واستقبال الربيع . ولأول مرة رأيت كيف يعجب الطاووس بنفسه . وكيف يفهم أنه من أجمل المخلوقات : رأيته وهو ينشر جناحيه فى زهو واختيال ثم يدور على قدميه ليراه الزائرون من جميع الجوانب . وفى هذا ما يدل على أنه يشعر بجماله . وأنه بذلك مفتون

وله لحظات يقوم فيها برعشات كهربائية يسمع لها صرير يشبه حفيف الريح بين الاوراق . وأقول يشبه فقط ، لان تلك الرعشة الكهربائية التى يقوم بها الطاووس تعرض على الناظرين ألواناً فتانة من ريشه الجميل . وهذا الجانب من زهو الطاووس يدق عن الوصف والتمثيل . ولا يدرك قيمته إلا من يراه . ولا يملك جمهور المتفرجين إلا جملة واحدة يكررونها فى تواتر وانجذاب ، إذ يقولون : ما أجمله ! ما أجمله !

الطاووس طائر دقيق الذوق . وله عواطف واهواء ، وهو فى عالم الطير يشبه الشاعر فى عالم الانسان

ليس للطاووس قلم يستهوى به أهل الجمال كما يفعل فريق من الكتاب والشعراء . وليس لديه قيثارة يغزو بها القلوب كما يفعل الموفقون من أهل الفنون . ولكنه يملك تلك الرعشة الكهربائية حين يبسط جناحيه ، فهو يتقرب بها الى من يهوى فى عالم الطواويس

فياليت شعرى وقد فهم كيف يكون الغزل ، أهو أيضاً يفهم كيف يكون الأسى وكيف يكون

الأنين ؟ وهل كتب عليه يوماً أن يرى كيف تكون حسناته ذنوباً عند بعض الاسراب ؟

انى لاحنو على الطاووس . فهو فيما رأيت يعنى نفسه فى نشر محاسنه وتظهر فى سيماه علائم القلق فى سبيل الوصل . فان كان هو أيضاً يخفق كما يخفق بعض الناس فليست الدنيا اذن إلا دار شقاء للجميع !

بك بعض مانى أيها الطائر الجميل . وليس لدى بعض مالديك من آيات الحسن والاشراق

أنت تملك ذلك الريش الاخضر البراق . وأنا أملك ذلك القلم الاسود المقصوف . فيا بعد مابينى وبينك حين تقوم النفائس والاعلاق !

كلانا غريب فى هذه الديار . ولكن الحسان تسعى اليك أسراباً اسراباً فى الضحى والاصيل . أما انا فأتعقب الحسان من ملعب إلى ملعب ومن بستان إلى بستان . ثم أعود وليس لدى ما أذهب به وحشة الليل غير ترتيل ما قال المعذبون من شعراء الوجدان !

وسلام الله على كل ساهر الجفن منطور الفؤاد !

باريس في أول ابريل سنة ١٩٣١

ليالى سنتريس

ليالى النيل واللذات ذاهبة ... وجدى عليكن أشجانى فاضنانى

لو يرجع الدهر لى منكن واحدة ... فى سنتريس ويدنى بعض خلانى

اذن تبين دهرى كيف يرحمنى ... من ظلم همى ومن عدوان أحزانى

☆ ☆ ☆

كم ليلة فى جوار النيل ساجية ... قضيتها بين غادات وولدان

أعارض البدر فى اشراق طلعته ... بأغيد مشرق الاوصال ريان

وأستبيح من اللذات ما رسمت ... اهواء صب غوى القلب شيطان

وأسلم اللوم تلحانى قوارصه ... اسراف لاه طروب الروح جذلان

☆ ☆ ☆

وذى دلال هو الدنيا وزينتها ... يردى الاسود بطرف منه نعسان

كأنما فعل عينيه بعاشقه ... فعل المدامة فى أعطاف نشوان

شربت من ريقه راحاً مشعشعة ... بخالص الحب لم تمزج بسلوان

وكم حبيب براح الريق أسكرنى ... وكم جميل بورد الخد حيانى

الأدب والحياة

لا حياة للآداب العربية ما دام كتابها وشعراؤها وخطباؤها لا يرون المرأة في حرية وصراحة ولا يتأثرون بجبروتها في ميدان الحياة

وما دام شبابنا يسمعون عن المرأة كما يسمعون عن الغول والعنقاء . ولا يرونها حين يرونها الا قذرة دنسة في بيوت الرجس والبغاء فهيهات أن تتفتح أذهانهم أو تزهر قرائحهم أو تظهر على آثارهم الادبية مسحة التيقظ والتفكير . وتلك الرءوس التي تتولى هداية الشرق في هذا العصر لا تدري مع الأسف الشديد أن الصلة وثيقة بين الادب وبين الحياة — ان لم يكن الادب روح الحياة — وأنه لا أمل في أن نرى لكاتب قصة جيدة مادام الكتاب بعيدين كل البعد عن المرأة التي تلون الوجود بشتى الالوان ، فتحيله تارة جحيما يرمى بالفزع والهول ، ثم تعيده حين تشاء جنة وارفة الظلال . وكيف تكون لنا آداب قوية تمثل فضائلنا ورذائلنا وحلمنا وجهلنا وطيشنا ورزانتنا وعقلنا وجنوننا ، ونحن نحرص على الطيبة والاستقامة في غيرفهم ولا تبصر ، أسوة بغلف القلوب من سماسرة الاديان وأدعياء الاخلاق !

إنه لا حياة للآداب الا اذا شغلتنا بأنفسنا ، وحدثتنا عن مطامعنا وأهوائنا وعيوبنا ومظان الخير فينا . وأرتنا كيف نحب وكيف نبغض ومتى نقدم ومتى نحجم . وعلمتنا كيف نجد وكيف نلهو ومتى نقسو ومتى نلين ... أما الادب الذي يصدر عن رجل مشغوذ معتوه ، كل احساس في رأيه إثم وكل إدراك عنده فسوق ، فهو أدب ميت سخيف لا يقوى به عقل ولا يسمو به خيال (١)

في سبيل المجد

جئت على الليالي غير ظالمة ... اني لأهل لما القاه من زمني
فما رأيت من الاخطار عادية ... الا بنيت على أجوازها سكني
ولا لمحت من الآمال بارقة ... الا تقحمت ما تجتاز من قنن
أحلت دنياي معنى لافرار له ... في ذمة المجد ماشردت من وسن

---

(١) مقتبس من مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب « حب ابن ابي ربيعة وشعره »

مذهب العلم الحديث في الدين وأصله (١)

بقلم الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق

مقدمة في العلاقات بين العلم والدين

يقول اميل بوترو Emile Boutroux العالم الفرنسي في كتابه « علم ودين » Science et Religion المطبوع في باريس سنة ١٩١٧ ما يأتي :

« إن أمر العلاقات بين الدين والعلم حين يراقب في ثنايا التاريخ يثير أشد العجب . فانه على الرغم من تصالح الدين والعلم مرة بعد مرة ، وعلى الرغم من جهود أعاظم المفكرين التي بذلوها ملحين في حل هذا المشكل حلا عقلياً ، لم يبرح العلم والدين قائمين على قدم الكفاح ولم ينقطع بينهما صراع ، يريد به كل منهما أن يدمر صاحبه لا أن يغلبه فحسب . على ان هذين النظامين لم يزالا قائمين ، ولم يكن مجدياً أن تحاول العقائد الدينية تسخير العلم ، فقد تحرر العلم من هذا الرق ، وكأنما انعكست الآية منذ ذاك ، وأخذ العلم ينذر بفناء الاديان ، ولكن الأديان ظلت راسخة ، وشهد بما فيها من قوة الحياة عنف الصراع » صحيفة ٣٤١ - ٣٤٢

ولسنا نريد أن نعرض لتاريخ العلاقات بين الدين والعلم على مر العصور وما تناوبها من سلام وحرب ، فان ذلك بحث يطول وليس هو بما قصدنا اليه في هذه المحاضرات . على انه قد يكون غير خلو من المناسبة لغرضنا أن نشير الى موقف العلم والدين في أيامنا هذه معتمدين على كتاب « اميل بوترو » المذكور آنفاً الذي يقول : « ليس التصادم الآن فيما يظهر بين الدين والعلم باعتبارهما مذهبين ، بل التصادم أدنى أن يكون بين الروح العلمي والروح الديني . وليس يعني العالم أن يكون الدين لا يثبت في عقائده شيئاً غير متفق مع نتائج العلم ، فان هذه الدعاوى التي يجعلها الدين عقائد يتعلق الايمان بها تقيد الفهم والوجدان ، وهي في الجملة تدل على اتصال الانسان بنوع من الاشياء يعجز علمنا الطبيعي عن إدراكه ، وفي ذلك ما يجعل العالم ، ان لم يرفض هذه الدعاوى نفسها ، رفض الاسلوب الذي يسلكه المتدين في الأخذ بها ، والمتدين

(١) اخترناها من محاضرات القاها الاستاذ في الجامعة الاميركية ببيروت

من ناحيته اذا وجد جميع عقائده وعواطفه وأحكامه العملية مفسرة بل مثبتة بالعلم يكون حينئذ أبعد شيء عن مسالمة العلم ، فان هذه الشئون إذا شرحت على هذا الوجه فقدت كل خواصها الدينية

البحث في تحديد الدين وبيان أصله

١ ـ بداية الاهتمام بهذا البحث وصلة ذلك بتكون علم اللغات

ندع هذا الصراع وتاريخه لنتجه إلى ناحية أخرى من نواحى البحوث العلمية الحديثة فى الاديان ، هى التى نقصد الى دراستها وهى ناحية تعريف الدين

والمراد بتعريف الدين تعيين الخصائص التى لابد لكل دين منها ، والتى لا يسمى الدين ديناً إلا بها . والبحث فى تعريف الدين مرتبط أشد ارتباط بالبحث فى أصل الدين وجرثومته الأولى ، فان حقيقة الشيء هى العناصر المكونة له فى أبسط مظاهره ، وقد نهضت همم العلماء لهذا البحث منذ نحو قرن من الزمان

تكون فى القرن التاسع عشر علم اللغات وأدى تعاون الباحثين فى ألسنة البشر ـ منذ أحدث أدوارها إلى اقدمها أى دور التكوين الأول للغة ـ الى معرفة العناصر المؤلفة للغات الانسانية

هنالك رأى الباحثون أنه يمكن على هذا المثال ادراك عناصر الفكر الانسانى وجراثيمه دينياً كان ذلك الفكر أم غير دينى . أما ما وراء التكون الأول للغة فهو لا يتصل بتاريخ الانسان وان كان مما يهم الباحث فى طبائع الاجسام

ذلك بأن الانسان هو اولا وبالذات مفكر ، واللغة أول مظهر من مظاهر تفكيره

ويزيد على ذلك « ماكس مولر » Max Mulluer فى كتابه « محاولة فى تاريخ الاديان » Essais sur l'Histoire desReligions قوله : « ويمكن ان يقال فى الدين ما قيل فى اللسان من أن كل جديد فيه فهو قديم وكل قديم فيه فهو جديد ، وانه منذ بداية العالم لم يوجد قط دين كله مبتدع . وإنا لنجد عناصر الدين وجراثيمه مهما سمونا فى تاريخ الانسانية الى أبعد مدى مستطاع ، وتاريخ الدين كتاريخ اللغة يرينا فى كل مكان الواناً متتابعة من التأليف المستحدث بين عناصر اصلية قديمة » . ثم يقول ماكس مولر : « وإنى لأشك فى أن يكون قد آن الأوان لوضع خطة ثابتة لعلم الدين كالخطة التى وضعت لعلم اللغة »

وإذا لم يكن تم وضع هذه الخطة لعلم الدين لعهد « ماكس مولر » فى أواخر القرن التاسع عشر فان علم الدين لما يقم إلى اليوم على خطة ثابتة . على ان جهود الباحثين فى تاريخ الاديان لا تزال متواصلة فى تعرف أصل الدين ووضع تعريف له جامع مانع على حد تعبير المناطقة

ولا يزال الباحثون منذ القرن الماضى يحاولون أن يضعوا للاديان شجرة أنساب كالتى وضعوها للغات

٢ ـ البحث اللغوى في المعاني المتعارفة للكلمة الاوربية الدالة على الدين وفي أصل المادة اللاتيني

ومما استعانوا به على مقصدهم تعرف أصل المادة التى تدل على دين ، وتتبع المعانى المعروفة لكلمة «دين» نفسها . والكلمة التى تقابل عند الأمم الأوربية لفظ «دين» العربى هى « رلجيون» Religion المقتبسة من اللغة اللاتينية . وقد اختلفوا فى مبدأ الاشتقاق لصيغة « رلجيو » Religio اللاتينية ، على ان أكثر المتقدمين يردها إلى مادة تفيد معنى الربط الشامل لربط الناس ببعض الاعمال من جهة التزامهم لها ، ولربط الناس بعضهم ببعض ، ولربط البشر بالآلهة بل يحاول بعض متأخرى العلماء أن يجعل مأخذ الكلمة شاملا لمعنى الربط وما اليه كالجمع ، هذا مع اختلاف الأقاويل فى اللفظ الاول الذى هو مصدر الاشتقاق

وكلمة « رلجيو » Religio اللاتينية تدل فى غالب استعمالاتها على معنى الشعور بحق الآلهة مع الخشية والاجلال . أما كلمة « رلجيون » Religion الحديثة فتطلق على معان ثلاثة :

١ ـ نظام اجتماعى لطائفة من الناس يؤلف بينها اقامة شعائر موقوتة وتعبد ببعض الصلوات وايمان بأمر هو الكمال الذاتى المطلق وايمان باتصال الانسان بقوة روحانية أسمى منه حالة فى الكون أو متعددة أو هى الله الواحد

٢ ـ حالة خاصة بالشخص مؤلفة من عواطف وعقائد ومن اعمال عادية تتعلق بالله

٣ ـ احترام فى خشوع لقانون أو عادة أو عاطفة

ولعل هذا المعنى الأخير هو أقدم هذه المعانى . ولئن فصلت هذه المعانى ليسهل تحليلها فان الغالب ان يدل اللفظ عليها مجتمعة مع غلبة المعنى الأول فى بعض الاحوال ، وغلبة المعنى الثانى أحياناً

٣ ـ مذاهب البسيكولوجيين في اصل الدين

وقد رأينا أن من معانى الدين المتعارفة معنى يجعله من موضوع علم الاجتماع ، ومعنى يرده الى علم النفس . أما الذين درسوا أصل الدين من الوجهة « البسيكولوجية » فمنهم من يرى أن جرثومة الدين تتولد من الادراك المغروز فى فطرة الانسان للغاية والمعلولية بين الاشياء

ومنهم من يجعل أصل الدين شعور الانسان بانه تابع لغيره وليس مستقلا

ومنهم من يرد أصل الدين الى ما يلقى فى روع الانسان بالفطرة من وجود لا يتناهى

ومنهم من يرى أن الدين ينبعث من نزوع الى الزهادة فى الدنيا

ويقول بعض علماء النفس ان هذا الحدث من احداث الحياة « البسيكولوجية » ليس بسيطاً يمكن رده الى سبب واحد بسيط من هذه الاسباب

٤ ـ مذاهب الاجتماعيين

وأما علماء الاجتماع فهم يرون ان الدين لا يخلو من معنى العاطفة النفسية ، ولكنه لا يخلو أيضا من الاتصال بشؤون الجماعة . بل ينتهى الامر بالعلماء الاجتماعيين الباحثين فى تاريخ الاديان وأصولها الى اعتبار الصبغة الاجتماعية فى الدين أقوى وأرسخ من كل صبغة سواها

مناظرة الهمذاني و « الخوارزمي »(١)

بقلم الاستاذ كامل كيلاني

أما أثر هذه المناظرة فى « الهمذانى » فقد أوجز « الثعالبي » فى قوله : « فلما تصدى الهمذانى لمساجلته ، وتعرض للتحكك به وغلب هذا قوم وذاك آخرون ، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت أمارات الاقبال على أموره ، ودرت له أخلاف الرزق ، وأجاب الخوارزمى داعى ربه ، فخلا الجو للهمذانى »

وأما أثرها فى الخوارزمى ، فكان كما يقول الثعالبي نفسه : « أنف من تلك الحال ، وانخذل انخذالا شديدا . وكسف باله . وانخفض طرفه . ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره ونفذ قضاء الله فيه »

والحق أن هذه المناظرة كانت أشبه بمبايعة قهرية من الخوارزمى للهمذانى . فقد انتهت المعركة بمثل ماتنتهى اليه هزيمة الملوك ، وانتقل تاج الشهرة من رأس الى رأس ! ولعل أصدق مثل ينطبق على ماحدث بين الهمذانى والخوارزمى هو مثل السلحفاة والارنب المشهور ، حين تراهنا على السباق الى غاية ، فتهاون الارنب — اعتمادا على سرعته — وجدت السلحفاة لتعوض مافات من قوتها

فقد كان الخوارزمى — حينئذ — شيخا قضى عمره بين حل وترحال ، ومضى على غلوائه فى الاضطراب والاغتراب — كما يقولون — وشرق بعد أن غرب ، وخبر الدهر وأهليه ، وتعرض لكيد الرؤساء وغضب الزعماء ، فلما تصدى الهمذانى لمناظرته — وهو حينئذ فى سن الشباب استخف به ولم يعد العدة لمناضلته ، وكأنما كان يتمثل قول القائل :

« عذرت البزل إن هى غالبتنى فما بالى وبال ابنى لبون »

ولم يكن زهد الخوارزمى فى مساجلته بأقل من دموع الهمذانى بها وتحرقه اليها . لانه كان يرى فيها أكبر فرصة للظهور . الا ترى إلى الهمذانى يبدأ بالتجنى على الخوارزمى وتقريعه واتهامه بالجفاء والكبر . فيرد عليه الخوارزمى رداً كريما يختمه باظهار خطأ الهمذانى فيما ذهب اليه من توهم الجفوة ، فلا يكون للهمذانى شاغل إلا استثارة الخوارزمى وتنقصه وعيبه ، فى كل ناد ومحفل مرتقبا الفرص لمناضلته وقهره ، ليصل بذلك الى الشهرة من أقرب طريق . فاذا بدا له أمل فى الاجتماع به ، حرص

(١) صفحات مقتبسة من مقال مسهب للكاتب

الهمذانى على تعجل الفرصة وسعى جاهدا إلى تحقيقها ــ خشية أن تفلت من يده ــ كما ينم على ذلك قوله : « واتفق أن السيد أبا على نشط للجمع بينى وبينه فدعانى فأجبت ، ثم عرض على حضور أبى بكر الخوارزمى فطلبت ذلك وقلت : « هذه عدة كنت استنجزها ، وفرصة لا أزال انتهزها »

فتجشم السيد أبو الحسين وكاتبه يستدعيه ، فاعتذر « أبو بكر » فى التأخر ، فقلت : « لا ، ولا كرامة للدهر أن نقعد تحت حكمه أو نقبل خسف ظلمه ، ولا عزازة للموائق أن تضيعنا ولا نضيعها وتميننا ولا ندفعها ، وكاتبته أنا أشحذ عزيمته على البدار ، وألوى رأيه عن الاعتذار ، وأعرفه مافى ذلك من ظنون تشتبه ، وتهم تتجه »

وهنا يقول الهمذانى : « وقدنا اليه مركوباً لنكون قد ألزمناه الحج وأعطيناه الراحلة ، فجاءنا فى طبق أف ، وعدد تف

كل بغيض قده اصبع وأنفه خمسة أشبار ! »

ولم يكد يستقر به الجلوس حتى بدأ يستثيره الهمذانى ويتحرش به الى أن زج به فى ميدان المساجلة ، وأنشده الهمذانى أبياتا كلها تهكم به وزراية عليه وتنقص لأدبه

وقد أجاز الخوارزمى بيتا للمتنبى كما اجازه الهمذانى وعاب عليه الهمذانى ما فى نظمه من قافات مكروهة ، فلما بدأ الخوارزمى يعيب عليه قوله :

« يا أحمقا ! وكفاك ذلك خزية جربت نار معرتى هل تحرق ! »

وينعى عليه صرف كلمة « أحمق » أمطره الهمذانى سيلا من السباب ، فقال : « وأما أحمق فلا يزال يصفعك لتصفعه ، حتى ينصرف وتنصرف معه ! »

ومن العجيب ان الهمذانى يسبه دون أن يقف فى سفاهته عند حد . ومن غير أن يراعى فضل الرجل أو شيخوخته ، ثم لا يخجل أن يقول له بعد ذلك : « ياهذا ان الادب غير سوء الادب والمناظرة حضرنا لا للمنافرة ، فان نفضت عن هذا السخف يدك ، وثنيت عن هذا السفه قصدك ، والا تركت مكالمتك . . » الخ . فاذا انفض المجلس طفق الهمذانى يروج فى كل مكان أنه انتصر على الخوارزمى اما انتصار ، وخذله أما خذلان . ويرسل اليه ــ فى نفس الوقت ــ رسائل الشوق والمجاملة والتحرق الى اللقاء . ويوفد رسلا يصلحونه واياه ! ولكن الخوارزمى يبعث اليه من يقول له : « قد تواترت الأخبار وتظاهرت الآثار فى انك قهرت . ولا أشك فى أن هذ التواتر عنك صدرت اوائله . والخبر اذا تواتر به النقل قبله العقل . ولابد أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء نتناظر بمشهد الخاصة والعامة الخ . . »

وإذن فقد بلغ الهمذانى إربته ، واهتاج الخوارزمى فاندفع الى طلب المناظرة ــ بلا تدبر ولا روية ــ فبعث اليه الهمذانى بكلام ظاهره اعتذار ، وباطنه احتثاث على المناظرة واستنفار اليها

ومرت الأيام ، ثم جاء اليوم المشهود ، وعقدت المناظرة فى دار الشيخ أبى القاسم المستوفى الوزير ، بمشهد من القضاة والفقهاء والاشراف وغيرهم من سائر الناس . وهنا يبكر الهمذانى فى الحضور

ليتملق من حضر ويتردد الى الشهود — بكل ما فى وسعه — ويدبر خطط الدفاع والهجوم تدبير الحاذق الذكى

قال : « وكنت أول من حضر ، وانتظرت ملياً حضور من ينظر الخ . » فاذا رأى من بعض الحاضرين شيئاً من الانحراف عنه ، تقرب اليه متملقاً ، كما فعل مع الشريف السيد أبى الحسين — حين رأى منه جانب الاعراض — فقال له من كلام طويل :

« فان كنت أبلغت غير الواجب ، فلا يحملنك على ترك الواجب ، ثم ان لى فى أهل الرسول (صلى الله عليه وسلم) قصائد سارت فى البلاد وطارت فى الآفاق ، ولكنى أتسوق بها لديكم ، ولا أتنفق بها عليكم ، وللآخرة قلتها لا للحاضرة ، وللدين ادخرتها لا للدنيا ! »

فقال للهمذانى : « أنشدنى بعضها » فأنشده الهمذانى شيئاً مما قاله ، فاذا حدث ؟ نترك للهمذانى نفسه روايته ، فهو يقول : « فلما أنشدت انحلت له العقدة ، وصار سلماً ، يوسعناحلما . الخ . » وبذلك أصبح الشريف من أنصار الهمذانى ومؤيديه . وجاء الخوارزمى — بعد أن تكامل العدد وتمت المؤامرة — فقوبل بفتور . ولم يكد يجلس فى مكانه الجدير به حتى طلب اليه الهمذانى أن يتخلى عنه الى غيره ، ووافقه الحاضرون على لباقته وحذلقته . ولقد أخطأ الخوارزمى أشنع الخطأ حين رضى بالبقاء والمناظرة فى مجلس مشبع بروح الخصومة واللدد . وليته اتبع قول ابن المقفع فى وصف صديق حازم : « وكان لا يدلى بحجته حتى يجد قاضيا فهما وشهوداً عدولا » اذن لأمن عواقب هذا الاندفاع والتسرع ، ولكن :

« ألا يا قوم للعجب العجيب وللغفلات تعرض للاريب »

ولكن كيف انهزم الخوارزمى فى المناظرة ؟ ليس لدينا غير مصدر واحد نعتمد عليه فى ذلك هو رواية الهمذانى نفسه ، وهى رواية خصم عن خصمه لا تقابل بغير الحذر والانتباه . وقد تعمد « الهمذانى » — بلا شك — أن يسجل فيها انتصاره مضاعفاً ، بأسلوب جديد من أقوى أساليب الدعاية . ولو كان لدينا مصدر آخر لتكشفت لنا جوانب كثيرة تعمد الهمذانى — بلا شك — أن يخفيها عنا ، ليزعم لنفسه الفوز كاملا والانتصار حاسما . على أننا نلمح فى كلام الهمذانى نفسه انه قد انتصر على الخوارزمى انتصاراً ، الهزيمة خير منه

وقد ذكرنا للقارىء طرفا من تلك الاساليب العجيبة التى سلكها الهمذانى للتغلب على خصمه الخوارزمى الأديب الكبير وابن أخت « الطبرى » المؤرخ الكبير . وهى أساليب نعدها دورسا قاسية فى التهافت المستكر على الشهرة وعواقبه ! . فقد رأيت انه لم يدع وسيلة من وسائل التهويش وتملق الحاضرين وارضائهم الا أتاها . فلما انتهت المناظرة وأراد تسجيل ماحدث فيها — كما شاء له الهوى — طفق يكيل المدح كيلا لكل من له خطر من الحاضرين حتى يأمن أن يكذبوه فى شىء مما رواه . وطفق الهمذانى وأنصاره وخصوم الخوارزمى يذيعون فى كل مكان أن الخوارزمى قد انهزم شر

انهزام .ولكن هل كانت الهزيمة حاسمة ؟ ذلك ماترتاب فيه رغم مايؤكده لنا الهمذانى ، اويصوره لنا فى روايته التى ليس لدينا مصدر سواها . ونحن نعتقد أن الهزيمة — ان كانت ثمة هزيمة — لم تكن وسائلها شريفة ، وليست تنقص من فضل الخوارزمى ، فقد كانت كل كلمة يقولها « الهمذانى » تقابل بالاستحسان ويعرب الحاضرون عن رضاهم عنها بالقول والاشارة وانبساط الاسارير . وقد أحسن الخوارزمى فى وصف خصمه بالشعبذة فلم يعن أحد بقوله . مع أنه وصف صادق لادب الهمذانى — فى ذلك الحين — فقد طلب من مناظره مثلا : أن يكتب كتابا خاليا من الحروف العواطل، وآخر أوائل سطوره كلها ميم وآخرها كلها جيم ، الى آخر هـذه الامور التى لانرى فى وصفها أصدق من كلمة الشعبذة

الشتاء في باريس

بقلم الدكتور بشر فارس

رُبَّ فجرٍ تسوّر الـ ـيمُّ فيه الى الفضا
فنضا الكون من صبا حَةِ جنبيهِ ما نضا
وانزوى البلبل اللعو ب عن الورد معرضا
حسب الوردُ أنه مال وارتد مبغضا
فَنَوَى مطرقاً عبو ساً وسرعان ما قضى
غضَّ من سَيْرِهِ النسيمُ وقد رنّ مُرْمِضا
كفن الوردَ بين أعـ ـطافِهِ ثم أعرضا
وإذا البلبلُ انبرى موجعَ الجنبِ مُمْرَضا
لثم الوردَ نادماً ثمَّ في فيضه مضى (١)

---

(١) مضى في فيض فلان أي شيع جنازته

الطابع العلمي (١)

بقلم الاستاذ فؤاد صروف

ما الغرض من التعليم والتهذيب ؟ لماذا ننفق الاموال ونشيد المعاهد ونستدر اكف المحسنين ، ونقضي الاعوام نذوق في خلالها صنوف الآلام العقلية ، ثم نخرج من المدرسة ونحن ندرك ، إذا كنا على شيء من العقل ، مدى جهلنا ؟ ما الغاية التي يرمي اليها الطالب وأبو الطالب ، بل ما الغرض الذي يبغيه الرئيس والاستاذ ؟ أللكسب يبغي الاول العلم أم للزينة أم للمقام الاجتماعي أم للنفع العام ؟ وهل يطلبه الثاني لتقويم الاخلاق أو لاخراج عمال للحكومة أو لاعداد جنود للوطن أو معلمين للمدارس أو تلاميذ يذيعون فكرة ويروجون لدعوة ؟

من الواضح ان نوال التعليم يختلف باختلاف الغرض منه . ما أكثر الاغراض وما أعظم الاختلاف بينها ! فالمربي الانكليزي المشهور — الدكتور ارنولد — كان يرى الوداعة العقلية غاية التعليم القصوى . وهي صفة لن تستطيع العثور عليها في « رجل أرسطو العاقل » إن غرض نيتشه يختلف عن غرض المعلمين المسيحيين ، فهو يربي « للقوة » وهم يربون « للمحبة » ! ثم ان الالمان والايطاليين واليابانيين يرون في كل طالب جندياً يناضل في سبيل الوطن ، والاميركيين يطلبون « النجاح العملي » ، والانجليز الدقة في تأدية الواجب على حساب الذكاء ، حتى إذا اتفق الباحثون على العناصر التي يجب أن يشتمل عليها الخلق الكامل ، اختلفوا في نسبة هذه العناصر بعضها إلى بعض . فالواحد يقدم الشجاعة والاقدام على الحرص . والثاني يطنب في القوة العقلية . والثالث يضع الدعة واللطف في المقام الاول . والرابع يرفع الواجب نحو الامة فوق الواجب نحو الذات . فعلينا ان نعرف الغرض الذي نرمي اليه معرفة واضحة الحدود والمعالم لكي نتمكن من السعي الى تحقيقه سعياً مجدياً

☆ ☆ ☆

كان النشاط العقلي والجسدي أظهر الصفات في رجل اليونان الامثل . وكان التراخي الجسدي ، والتفكير الذي تغلب عليه صفة التأمل الهادىء ، اظهر الصفات في رجل الصين الامثل . فكان السياسي اليوناني إذا غلب على أمره في بلده وطرد منه لا ينزل على حكم الدهر عليه . بل يتزعم حفنة من المشردين امثاله ويصلي الجماعة التي أذلته نار الحرب . أما المثقفون الصينيون فكانوا اميل إلى التأمل

(١) اختارها الكاتب من محاضرة القاها في جامعة بيروت الاميركية بدعوة من جمعية « تهذيب الشبيبة » سنة ١٩٣٠

والتشكيك والتمتع بمجالى الجمال الهادىء . وكان موظفهم اذا خرج من منصبه ينطلق إلى عزلة على قمة جبل لينظم أشعاراً فى مسرات الحياة القروية

فالتعليم الصينى أنتج « استقراراً » . ولعل هذا ما ينتظر من تعليم قائم على الريبة والشك . وأما التعليم اليونانى فانتج تحولا وحرباً ، لان المعتقدات التى نعتقد فى صحتها بكل جوارحنا ونؤيدها بكل قوانا ، لا تحملنا على الاستقرار بل تدفعنا الى الكفاح فى سبيلها . لذلك قضت الحضارة اليونانية على نفسها بايدى أبنائها . أما الحضارة الصينية فاستقرت على ما هي عليه آلاف السنين ولا تزال تنتظر من يقضى عليها من الغرب أو من أبنائها المثقفين بأساليب الغرب

وكان التعليم اليونانى جرثومة الحضارة الغربية الحديثة ، حملها العرب بعد ما تعهدوها بكل أساليب العناية والنماء ، حتى اتصلت أخيراً باليابان ــ جارة الصين ــ فجعلها اليابانيون أساساً لنهضتهم الحديثة ، ولكنهم جعلوا « المجد القومي » غرضاً لهذا التعليم الدينامى ، فاخضعوا له كل قوى التلميذ الجسدية والعقلية والروحية

وكلا الموقفين ــ أى كلا التعليمين ــ تعليم الصينيين فى الطرف الواحد وتعليم اليابان فى الطرف الآخر ، خطر على العمران الحديث . فالاول يتمادى فى التشكيك والريبة حتى يفضيا به الى الجمود ، والثانى يتمادى فى التحكم والايمان بتحكمه وقوته حتى يصبح أبناؤه وهم كالقنابل المنطلقة

أما والارتقاء المتزن هو غرض الحياة الاسمى ، فالتمادى فى التشكيك المفضى الى الجمود ، لا يجدى نفعاً فى ميدان كفاحها . أما وقد أصبح العمران بفضل العلم والصناعة معقد التركيب محكم الترابط دقيق الاحساس ، فالتمادى فى التحكم ــ الذى يجعل الثورة والحرب سبيل الارتقاء الوحيد ــ مبعث خطر يهدد الحضارة بالانقراض

فغرض التعليم يجب أن يكون : « الايمان بأن الحصول على المعرفة مستطاع الى حد ما ولكنه صعب كل الصعب . وان جانبا كبيراً مما نعرفه أو نحسبه معرفة يحتمل أن يكون خاطئا . وأن هذه الاخطاء تصحح بالاختبار والدرس . كذلك علينا أن نعلم الطالب أنه حين ينطلق فى عمله اليومى ، لتحقيق رغائبه ، يجب أن يكون بالغ الحذر ، حيث يحتمل أن يكون الخطأ اليسير باعثا على ضرر عظيم . ومع ذلك فلا بد أن تكون غرائزنا ورغائبنا أساسا لكل اعمالنا . وهذه الحالة العقلية ــ حالة الحذر الدائم واليقظة المستمرة لحفظ التوازن بين ما تقضى به النوازع وما يمليه العقل ــ حالة دقيقة كل الدقة . انها تحتاج الى أعظم جانب من ثقافة العقل ورياضة النفس . ولكنها على دقتها غير متعذرة على من يرضى ان يبذل فى سبيلها جهداً خالصا . هي فى الواقع الطريقة العلمية ، بل هي صميم الطابع العلمى

« أن المعرفة كمثل اطايب الحياة صعبة المنال . ولكن منالها ممكن . اما المتحكم فينسى الصعوبة . واما المشكك فينكر الامكان »

فى استقبال سعد

خطبة للسيد محمد الفقيهي التفتازانى

يا سعد

حيتك دنيا مصر ، فليحيك باسم أولاد الرسول وحفدة البتول واحد منهم

يحييك معجباً بما أسلفت لوطنك العزيز من جهد لا يذهب خيره ولا يضيع عند الله ولا عند الناس أجره ، ذاكراً لك مواقف تكشفت منك عن عزمة وجلادة وصلابة إرادة

أيها الرئيس الجليل

لقد كنا نتتبع ما يطالعنا به البرق والبريد معا من أنباء جهادك ، فاذا دعوت آمنا ، واذا صرخت لبينا ، مخلصين فى ذلك كله للوطن ، متمنين النجح لأوطاننا العربية جميعا ، لأن الاسلام لا يعرف وطناً ولا اقليما ، وانما هو وطن شامل لجميع أهله ، والعربية كذلك تجمع شتات الناطقين بها دون تفريق بين دين ودين ولا تمييز بين فريق وفريق

وحسب المتجرد لعقيدة ينصرها أو لمبدأ يدين به ما يحسه من الغبطة بالفناء فى عقيدته أو مبدئه فناء كما يعرفه أئمة الصوفية يمحق الأنانية الفردية ويبقى على الروح التى هى المظهر الاقدس للموجود الأول

ذلك لأن ماقد نصل اليه بالصبر من النجح فى القضية المصرية يعتبر نجحا وفوزاً للشرق كله . وما مصر الا تاجه الوضاء ومناره الهادى وسجل مجده وفخاره

أيها الرئيس الجليل

ليهنك يوم لم تطلع مثل شمسه على ملك من الملوك الصيد ولا على فاتح من ذادة الثغور . ولو أتيح مثله لبعض المشترعين لكفل لهم بقيا شريعتهم ولضمن لهم خلودها . ولو طلع مثله بما كان لك على أحد من هداة آل البيت عليهم السلام فى ابان دعوتهم وجدة أمرهم وزهو طالعهم ، لكان من خلفهم الآن المتوجون عن رضى يدين به المسلمون ، ولتربع فى دسوت رعاية البشر منهم الآمرون والناهون . وها نحن الآن وقد نقشنا صورتك الشيخة الفتية على صفحات مهجاتنا نقش المدى على رقاق الاكباد محوطة بآية من كتاب الله الكريم نزلت فى اسلاف آل محمد عليهم السلام وهى لك اليوم : « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً »

ولشد ما كنا نغتبط بما تحرزه من الفوز فى ميادين النضال السياسى ! لان هذا الفوز ليس فى

رجع أمره الا فوزاً للامة التى تمثلها أنت وموكلوها من أعضاء وفدها

لقد جمدت الامة على أن يكون وفدها هو الناطق بلسانها . وعبثاً حاول اللورد ملنر أن يصل إلى بغيته من مفاوضة أحد من رجالها ، ورده الكل إلى الوكيل المفوض ، مبينا له أن الوفد وحده هو صاحب الحق فى التحدث عن القضية المصرية جملة وتفصيلا . وما كان أشد اغتباطنا يوم ترامى الينا أن الوفد الذى هو فخارنا القومي نزل عند رأى الامة فى تحفظاتهـا على تقرير لجنة اللورد ملنر وتحامى أن يزج بنفسه فى مفاوضته على غير وضح رأى الامة !

أجل أيها الرئيس الجليل

انا انما نغتبط بأن يكون الوفد كما تريده الامة مرجعاً لقضيتها وحكما لاطرفا فى هذه القضية . ولو أن التحفظات قبلت من الطرف الآخر لكان هذا القبول داعيا إلى امضاء المعاهدة . ولكن لابد أن تكون هذه التحفظات موضع بحث إلى جانب اندادها من الضمانات التى يطالب بها الخصوم. وما دام مرجع الأمر الى الاقناع والاقتناع فستكون محبتك هى الظافرة حين الرجعى الى قويم رأيك . ولا أظن دليلك على احقاق الحق الا موفقا حين يلجأ الى قويم حكمك

أيها الرئيس الكريم العظيم

انك ووفدك مأمونو الايراد والاصدار بعيدون عن كل ظنة ، ولذلك كان الاعود على كرامة الامة بالتوقير والاجدى على الوطن بالاكبار والاليق به اعتزازاً ، أن تتلاحم الصفوف ، وأن تتناسى الاحن وتختفى الاحقاد ، وأن يشد الله بك وبأصحابك العضد ، حتى نصل إلى غايتنا من السيادة والحرية فى بلادنا

وهنا يجب أن ألبى داعى الله عند قوله الكريم : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . يجب أن يتناصح الجميع تناصحا ينتفى به الزهو ، وتمحق به الكبرياء ، لنكون جميعاً أدنى الى الصواب منا الى الخطأ

أيها الرئيس الجليل

ان مصر طواعية لا كراهية ، مدفوعة بدافع الحب والاحترام ، لا بدافع الرغبة والارغام ، قد استحالت كلها مظاهرة ، وحفت من حولك تستقبلك وتحييك وتهنئك بتوفيق الأوبة السالمة وتفديك ، ثقة منها بسداد رأيك وثقوب ذهنك ونبل مسعاك . فكن لها كما خلقت عارياً من كل ثوب الا مجدها مجرداً من كل نصير الا جندها

وقد عانت مصر من آلام فرقتك فى سبيل نصرة قضيتها من الصبر على بلاء الغاصبين الظالمين مانكل الى الله أن يعوضها منه الامن والطمأنينة ، وأن ينشر فى ربوعها العدل والسكينة . وقـد أصبحت مصر ولله الحمد والمنة وليس تحت سمائها من أهلها من لا يعمل لاعلاء منارها

شعر الاخاء والاخوان

من مقال للاستاذ عبد الله عفيفى

الاخاء والاخوان

وذلك فن من الشعر قال فيه المصريون عن علم ، وقالوا عن عقيدة ، وقالوا فيه عن فطرة ووجدان

والمصرى اليف بالطبع ودود بالفطرة ، أنيس بالغريزة . يوثق حبل الاخاء ويستوثق به ، ويصفيه ويصفو له ، ويحتليه ويحن اليه

لذلك قال الشعراء المصريون أحسن ماقيل فى مواتاة الاخوان ، وفى معاتبة الاخوان . وفى شكوى الاخوان . لأن الرجل الصافى الأليف يكثر الشكوى والعتاب اذا لمح ظلا من نبوة الود وتبين أثراً من انحراف الصدق

وحديث الاخاء والاخوان فى العهد الفاطمى حديث شائق طريف . فيه متعة للنفس وفيه راحة للروح . وفيه فرجة للصدر ، وفيه ظرف وأدب ، وفيه علم وفن ، وفيه ايضاً اذكاء للحزن وتهييج للحسرات على ما نراه من فساد الاخاء والاخوان فى هذا الزمان

والحق انى ماقرأت حديث الاخاء فى الشعر الفاطمى ، وما ذكرت تآلف الناس وتواصلهم أفراداً وطوائف ، وفرقاً وجماعات فى ذلك العهد الذى باد اثره وانقضى خبره ـ إلا أحسست لوعة مبثوثة من الحزن على ما أجد من الغل والحقد والفساد والشنآن فى اخوان الزمان

ان اكثر ما قيل من الشعر الفاطمى قيل فى وصف الاخوان ، ومدح الاخوان ، وموادة الاخوان ، ودعوة الاخوان للاخوان . فاذا التقوا تذاكروا الشعر وتجاذبوا الشعر ، فكان للروية منهم نصيب وكان للبديهة منهم نصيب

وكانوا لا يلتقون الا على بساط روض او تحت ظلال دوح أو فى رحاب مسجد أو منازه دير أو على شاطىء بحر او نهر او بركة أو غدير . وفى كل موطن من تلك المواطن يموت الحقد وتفنى الضغينة . وفى كل بقعة من تلك البقاع يفيض الشعر وتثمر القريحة . وهم من انفسهم وافئدتهم فى روضة زاهرة بالالفة مثمرة بالاخاء لا يعصف بها الاثم ولا تعبث بها الاهواء

والعهد الفاطمى عهد المواسم والاعياد . فما كان الناس فى القاهرة يفضون من عيد الا الى موسم ، وما كانوا ينتقلون من موسم الا الى عيد ، وفى هذه المواسم والاعياد كان الناس يحدون

فنونا من الأنس والبهجة والسرور تروح عنهم ما كانوا فيه من عمل دائب وجهد شديد، وكان الخليفة او نائبه يستقبل الناس فى هذه الاعياد طوائف وجماعات ، وكان الشعراء أكثر الناس ابتهاجاً وأوثقهم ألفة واجتماعا وأخصبهم نجعة وارتياداً فى هذه الايام . فقد جرى بعض خلفاء هذه الدول على تسجيل صور الشعراء ومراثيهم وأعطياتهم فى ديوان خاص . وانما حدثتك هذا الحديث لتعلم أن طبيعة الحياة فى ذلك العهد الكريم كانت تدعو الى توثيق الالفة وإحكام أواصر الاخاء بين الاخوان

أما الآن ، وقد طغت المدنية المادية على العقول والقلوب ورانت الشهوات المادية على العقائد والآراء ، واستذلت المطامع والمنازع أعناق الرجال ، فأين تجد الصفاء والاخاء ؟ ومن تطلب المودة والوفاء ؟ !

وفيم يجتمع اخوان هذا الزمان ؟ ! أهم يتذاكرون الشعر ويتجاذبونه . ؟ أهم يتناقلون الادب ويتسامرون به . ؟ أهم يتعاونون على غوث اللهيف وعون الضعيف من اخوانهم أو على رعايته فى أهله وبنيه ان كان مات عن أهل وأبناء . ؟ . . . لا . . لا هذا ، ولا بعض هذا ، ولا ما يشبه أن يكون ذلك

هم لايتذاكرون الشعر ، ولا يتناقلون الأدب ، ولا يتعاونون على البر والتقوى ، وإنما يجتمعون ليعيث الحاضر فى الغائب ، ويسطو الفاحش على الوادع ، فاذا نهض من جماعتهم واحد كان ذلك الواحد المسكين هو الغرض الذى يتعاورونه ويتعاونون عليه

أشد ما تحتاج اليه جماعات الاخوان فى هذا الزمان : النبل ، والرجولة ، وعفة الغيب ، ونقاء الصدر ، وصفاء الضمير ، وان أكبر عيبك عند أحدهم أو عند جماعتهم أن يرزقك الله نباهة فى الاسم ، أو كرامة فى المنزلة ، أو اقبالا على جد العمل ، فهو يرى من حقه ومن واجبه أن يدافع تلك النباهة بالكذب والوقيعة ، وأن يصيب تلك الكرامة باللغو والمفسدة ، وان يكدر ذلك العمل الجاد باللغط والبهتان . ولقد تصاحب الرجل عشرين عاماً أو تزيد ، ثم تتركه خمسة أيام أو تنقص ، فاذا به قد عاث فى غيبتك وولغ فى كرامتك ، ومد لسانه كشباة العقرب يطعن به الاديم الصحيح وينفث به السم الدفين

أساس هذا الضيق فى الخلق ضيق الاجتماع . فالرجل عندنا اما لزيم النساء فى المنزل يجاذبهن الحديث عن طول امرأة وقصر أخرى ، وعن نصفة امرأة وخيبة أخرى ، وعن الخلاف الذى شجر بين امرأة وأخرى . واما رهين المشارب العامة المنثورة فى أحياء المدينة وعلى مفارق طرقاتها حيث الضجيج واللغط والضيق والزحام وفساد الجو واختلاط الجماعات . فاما منازهنا ومراتعنا وفسحات وادينا ومسارح نيلنا فقد خلق كله لغيرنا

في تأبين امير الشعراء

من قصيدة للاستاذ بشاره الخوري

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره ... فسدرة المنتهى أدنى منابره
وامسح جبينك بالركن الذي انبلجت ... اشعة الوحي شعرا من منائره
إلهة الشعر قامت عن ميامنه ... وربة النثر قامت عن ميامره
والحور قصت شذورا من غدائرها ... وارسلتها بديلا من ستائره
أتراب مريم تلهو في خمائله ... ورهط جبريل يحبو في مقاصره
والملهمون بنو هومير ما تركوا ... لما أهل لهم سجعاً لطائره

* * *

قال الملائك من هذا فقيل لهم ... هذا هو الشرق هذا ضوء ناظره
هذا الذي نظم الارواح فانتظمت ... عقدا من الحب سلك من خواطره
هذا الذي رفع الاهرام من ادب ... وكان في تاجها اغلى جواهره
هذا الذي لمس الآلام فابتسمت ... جراحها ثم ذابت في محاجره
كم في ثغور العذارى من بوارقه ... وفي جفون اليتامى من مواطره
سل جنة الخلد كم ودت أزاهرها ... لو استحالت عبيراً في مجامره
وصادح الطير لو سالت حناجرها ... مع الصباح نشيداً في مزاهره
والزهر لو كن ازراراً مفضضة ... على الذيول الضوافي من مآزره
شوقي سلوا الافق هل ثارت عجاجته ... لما ثوى المتنبي في مغائره
شوقي سلوا البحر هل جنت عواصفه ... لما كبا بابن سينا جد عاثره
شوقي سلوا الليل هل كانت كواكبه ... لما قضى غير شوك في نواظره
في مأتم الشعر والاقلام مطرقة ... فان ارادته غصت في محابره
ما بلدة سعدت بالنهر يغمرها ... بكل أزهر حالي العود ناضره

بالبلبل المتغني في ملاعبه ... والسنبل المتثني في غدائره
بالحقل ترعى به القطعان هانئة ... والنحل يرضع من ثديي أزاهره
يستقبل الفجر أهلوها بغرته ... ويغرقون الليالي في سرائره
ناموا على سرر الاعراس وانتبهوا ... على صباح بكى الطرف غائره
على ما آتم من طير ومن شجر ... خرساء كالقبر غرقى في دياجره
يالارزية ! . . غال النهر غائله ... وغار في لهوات من هواجره
فلا الصباح ضحوك في شواطئه ... ولا المساء لعوب في جزائره
وأسلم الزهر أجيادا منضدة ... للشوك جفت على دامي أظافره
والناس في غمرة عمياء لا وتر ... لناشديه ولا نجم لسامره
ما الخطب بالنهر مجرى الروح في بلد ... فرد رقيق حواشي الذكر دائره
كالخطب يدوى له كون بجملته ... اذا أصاب الردى شعباً بشاعره

* * *

يا مصر ما انفتحت على حسن ... إلا وأطلعت الفاً من نظائره
ولا تفتقت الافكار عن أدب ... إلا وأنبت روضاً من بواكره
لبنان يا مصر مصر في مآتمه ... كما علمت ومصر في بشائره
هل كان قلبك إلا في جوانحه ... أو كان دمعك إلا في محاجره
أو كان منبت مصر غير منبته ... أو كان شاعر مصر غير شاعره
شوقي أتذكر اذ عاليه موعدنا ... نمنا وما نام دهر عن مقادره
واذ طلعت علينا أصفرا وجلا ... كالنجم خلف رقيق من ستائره
ونحن حولك عكاف على صنم ... في الجاهلية ماضي البطش قاهره
وأنت تحت يد الآسى ورأفته ... وبين كل ضعيف القلب خائره
ولا بتسامتك الصفراء رجفتها ... في مثلها من كليل الطرف حائره
سألتنيه رثاء خذه من كبدي ... لا يؤخذ الشيء الا من مصادره

تجارة مصر قبل الحملة الفرنسية (١)

بقلم الاستاذ احمد حافظ بك عوض

لم يكن من الممكن مع حكومة كحكومة المماليك أن تنمو التجارة ، أو تتسع المعاملات الداخلية والخارجية ، وقد سبق لنا أن شرحنا فى هذه المقدمة أن مصر لم تعد بعد طريق التجارة الشرقية القادمة من موانىء آسيا الى أوربا ، بعد أن اكتشف طريق الرجاء الصالح . ولو كانت على ضفاف النيل حكومة عادلة ، لفضل التجار ارسال متاجرهم عن طريق البحر الاحمر ، ونقلها من السويس الى الاسكندرية بدلا من تعرضها لاخطار البحار العظمى حول افريقية وواسع المحيط الاطلانطيقى (وسنزيد هذه النقطة ايضاحا عند الكلام على تجارة الهند) .. ولو أن الحكومة العثمانية ، بعد فتح مصر ، فكرت فى صالح نمو التجارة ، وقدرت خسارة مستعمرتها الجديدة ، من اكتشاف طريق الرجاء الصالح ، خصوصاً وقد حاربت بأساطيلها البرتغال الذين كانوا يهددون تجارة مصر ، كما سبق لنا بيانه ، نقول لو أن الحكومة العثمانية فكرت فى هذا الامر ، وأعادت حفر خليج أمير المؤمنين (الذى احتفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب لنقل المؤونة الى الحجاز ، والذى أمر بردمه ، فى سنة ١٣٤ هجرية ، الخليفة المنصور أبو جعفر ثانى الخلفاء العباسيين لكى يمنع وصول الامداد الى العلويين الذين طالبوا بالخلافة فى المدينة المنورة) — لسهلت للتجارة النقل بحراً من الهند الى أوربا ، عن طريق مصر . ولكنهم لم يفعلوا هذا ، ولم يتمكنوا من نشر سيادتهم البحرية فى المياه الهندية . وزد على ذلك أن مظالم المماليك وتعديهم على التجار الاوربيين الذين كانوا يأتون لشراء حاصلات مصر ، وما يصل اليها من الممالك الشرقية الاسيوية بطريق القوافل ، كانت من أكبر الضربات على التجارة المصرية . ولقد انحط مقام الاسكندرية حتى لم يبق فيها من السكان إلا ثمانية آلاف وزاد الطين بلة فيها أن الحكومة العثمانية احتكرت لنفسها الجزء القديم من الميناء وهو الجزء الذى يصلح لرسو السفن . فكانت السفن الاجنبية القادمة بالمتاجرة وللشراء مضطرة أن ترسو خارج الميناء الجديد معرضة للزوابع والزعازع . وروى مؤرخو الافرنج (فى سنة ١٧٦٦) أنه بينما كان على بك الكبير يحارب الدولة هبت ريح عاتية أغرقت اثنتين واربعين سفينة كانت راسية فى ميناء الاسكندرية ولم تكن الاسكندرية متصلة بالنيل بقناة تنقل لها الماء العذب ، وكانت هناك قناة مرسومة فى الخرائط الفرنسية وهى الترعة المسماة بالمحمودية ، نسبة الى السلطان محمود ، ولكن

---

(١) اخترناها من كتاب « فتح مصر الحديث »

اما كانت توصل المياه إلا زمن الفيضان فقط ، فكان اعتماد سكانها على مياه الامطار

وحاول جماعة من تجار الانكليز تسيير القوافل بين السويس والقاهرة لنقل المتاجر الهندية الى عاصمة القطر ، ثم نقلها بواسطة النيل الى دمياط أو رشيد . ولكن مظالم المماليك وتعدى العربان على القوافل أوقف تلك المشروعات التى كانت تساعد على نمو التجارة المصرية . وليست هذه الاقوال لكتاب أوربيين حتى يتهموا بالتعصب لقومهم ، فان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى يقول فى ترجمة مراد بك : « فأحدث المترجم ديواناً خاصا بثغر رشيد على الغلال التى تحمل الى بلاد الافرنج وسموه ديوان البدعة . واذن ببيع الغلال لمن يحملها الى بلاد الافرنج وغيرها . وجعل على كل أردب ديناراً خلاف البرانى (يعنى الرشوة والمغارم) . والتزم بذلك رجل من أعوانه الموصوفين بالجور وسكن برشيد وبقيت له بها وجاهة وكلمة نافذة ، فجمع من ذلك أموالا وايراداً عظيما . وكانت هذه البدعة السيئة من أعظم أسباب قوة الفرنسيس وطمعهم فى الاقليم المصرى . بعد ما أضيف الى ذلك من أخذ أموالهم ونهب تجارتهم وبضاعتهم ، من غير ثمن . واقتدى به أمراؤه (أمراء مراد بك) وتناظروا فى ذلك وفعل كل منهم ماوصلت اليه همته واستخرجته فطنته » وقال عنه أيضا: « واختص بالسيد محمد كريم السكندرى ورفع شأنه بين أقرانه فهد له الامور بالثغر وأجرى أحكامه به . وفتح له باب المصادرات والغرامات ودله على مخبآت الامور ، وأخذ أموال التجار من المسلمين وأجناس الافرنج . حتى تجسمت العداوة بين المصريين والفرنسيين » الخ . وقال فى ترجمة السيد محمد كريم المذكور : « وقلده مراد بك أمر الديوان والجمارك بالثغر فزاد فى المكوسات ومصادرات التجار ، خصوصاً الافرنج »

ومن رأى « جودت باشا » فى تاريخه أن الذى دعا الفرنسيين للحملة على مصر هو ما أتاه المعلم نقولا النصرانى الذى جعله حسن باشا قبودان رئيساً للقلونجية (البحارة) فى الترسانة التى شادها هذا بالجيزة لانشاء السفن . فانه بعد أن اشتد نفوذه وعظم شأنه أكثر من التعدى على سفن الاسلام والافرنج معا . وكانت نتيجة ذلك كله أن مصر تدهورت الى هوة الخراب الاقتصادى الذى تجرعت منه الامرين . وقاسى منه أهلها الجوع والعراء والمظالم نحو ثلاثة قرون من الزمان . حتى اضمحل شأنها وفقدت منزلتها التى كانت لها فى العالم القديم والحديث . وحتى هجرها أهلها ، وهى البلاد التى لايحب أهلها هجرها . ولا غرابة أن تتضاءل مصر فى ثلثمائة عام حتى تعود خيالا لما كانت عليه من قبل . وحتى ينقص عدد سكانها من نحو ١٥ مليونا الى نحو مليونين ونصف . ولكن بالرغم من كل هذا فانه بقيت لمصر تجارة ترد اليها بالقوافل من اليمن وبلاد الحبشة وسوريا شرقاً ، وطرابلس وتونس والجزائر والصحراء غربا . فكان يرد من اليمن البن وبهارات الهند والاقمشة الهندية الجميلة . ويرد من الحبشة الصمغ والعاج والريش . ومن دمشق الاقمشة الحريرية المشهورة . ومن بلاد الغرب والصحراء الصوف والجلود والتمر وما أشبه ذلك

العبقرية

بقلم الاستاذ محمد اسعاف الفشاشيبي

ليست العبقرية في بيت أحكم سبكه ، وفصح لفظه ، وبلغ ايجازه ، وآنس السمع مجازه ، وأضاء كالشمس معناه ، وساق مثلا ، وحمل حكمة . فكائن من أبيات ، قد اشتملت على هذى الصفات ، ولم تقترب من العبقرية قيد فتر ! . لكنها من وراء ذلك : انها روح القائل في قوله ، إنها الحياة سرت في كلمات ، إنها القول من كلام الناس وليس من كلام الناس ، إنها المقاصد قد رمى فقرطس راميها ، وغزا فآب بفتح في القول غازيها ، انها الكلام يكاد ينطق ، يكاد يثب ، يكاد يقوم في الجمع خطيباً ، يكاد يجيء في عهد الخلاعة ، فى عهد الفجور ، في عهد الانتداب ، في عهد الانكليز ، يزفن مع النساء الراقصات الزافنات ويغنى عندليبا . إنها الحسن لم يعتد في كل حين . وانه الجمال يبهر المجتلين . فينشدون دهشين قول شوقى وهو دون العشرين :

« صوني جمالك عنا إننا بشر من التراب وهذا الحسن ريحانى »
« أو فابتغى فلكا تأوينه ملكا لم يتخذ شركا فى العالم الفانى »
« ينساب فى النور مشغوفاً بصورته منعما في بديعات الحلى هانى »
« إذا تبسم أبدى الكون زينته وان تنفس أهدى طيب ريحان »

وأما رصانة السبك . وأما حسن الديباجة . وأما اطراد الاسلوب . وأما صحة اللفظ . وأما اتضاح المعنى . وأما ضبط اللغة . ففضيلة صاحبهن كلا فضيلة . وهل يسمى الكلام كلاماً فقط . « بس » إلا بكل ذلك ؟

إنها العبقرية . إنها العبقرية لا يد لصاحبها فيها . ولا عمل ثمة لبيت . أو كُتّاب . أو مدرسة . أو كلية . أو جامعة . أو بيئة . ولو كان في الجامعات خير كبير لخرج في الناس عباقر كثير . وقد يجلو الصيقل جوهراً فيشع وينير ، ولكن

« السيف مالم يلف فيه صيقل من سنحه لم ينتفع بصقال »

إنها العبقرية إنما تجيء من فوق . إنها إنما تهبط من السماء « إن هو إلا وحي يوحى »

فهرس

صفحة	
	مقدمة
١	في حضرة الرئيس
٣	الرحالة في الصحراء
٧	الملك فيصل
١٠	شلالات نياغرا
١٣	وقفة في ظل تمثال (قصيدة)
١٨	العهد الجديد في حياة الانسان العقلية
٢٠	عبقرية جيتي
٢٣	خزانة الذكريات
٢٥	الفروسة : تاريخها ومبادئها ورسومها
٢٨	المهاجر (قصيدة)
٣٠	الطغاة وحرية القلم
٣٤	التسامح
٤٠	الحرب العظمى (قصيدة)
٤٢	اطو خريطتها
٤٤	فرعونيون وعرب
٤٦	مقياس الرقي
٤٩	عظيم . . .
٥٢	ليالي البدر (قصيدة)
٥٤	جراف تسبلن
٥٦	دمعتي (قصيدة)
٥٧	السائرون النيام
٦١	حديث قطين
٦٥	المدنية المصرية القديمة
٧١	يازمان
٧٣	بأي ميزان تزن الحياة
٧٧	وحي جبال شامونى
٨٠	مقتطفات
٨١	المال
٨٤	محور الادب
٨٧	الفقر والسقام
٩٠	خطبة الاستاذ فكري أباظة
٩٣	شبابنا في المجتمع
٩٧	الازهار المداسة
١٠٠	ابراهام لنكولن
١٠٣	الاسترقاق عند المصريين وفي الاسلام

صفحة	
١٠٥	فقيد الامة العربية (قصيدة)
١٠٧	حزن أب (قصة)
١١٠	الخطيب والجمهور
١١٣	الامبراطورية العربية
١١٨	السعادة واركانها الاربعة
١٢٠	ملكة تدمر (قصيدة)
١٢٢	القوة والعلم هما دعامتا الحياة
١٢٤	روح المدنية
١٢٩	شبابنا الجديد : آماله وأحلامه
١٣٢	يا قمر (قصيدة)
١٣٣	البلاغة في اللغة العربية
١٣٧	وصف القلب (قصيدة)
١٣٨	رجعة اوربا الى الاحتشام والتقيد
١٤٢	خدمة الفكر في عصر المادة
١٤٥	في عيد القضاء الاهلي (قصيدة)
١٤٦	ضمير قلق
١٤٨	في الحركة الوطنية (قصيدة)
١٤٩	جلنار
١٥١	مقتطفات
١٥٢	فلسفة الحب عند العرب
١٥٧	روح فياض (قصيدة)
١٥٨	احزان الانسانية
١٦١	قصيدة ابى الهول
١٦٤	عبد الرحمن الناصر
١٧٠	ثروت باشا
١٧٣	الله والشاعر (قصيدة)
١٧٤	الطاووس
١٧٧	مذهب العلم الحديث في الدين وأصله
١٨٠	مناظرة الهمذاني والخوارزمى
١٨٣	الشتاء في باريس
١٨٤	الطابع العلمي
١٨٦	في استقبال سعد
١٨٨	شعر الاخاء والاخوان
١٩٠	في تأبين امير الشعراء
١٩٢	تجارة مصر قبل الحملة الفرنسية
٩٤١	العبقرية